المشرق

في الحافظة

بقلم الاب لويس ترثال اليسوعي

الحافظة ويقال لها ايضاً الذاكرة هي قوة باطنة تحاكي الخيلة في بعض اعراضها الّا انها مغايرة لها جوهرياً فبينما الخيلة تستبقي صور المحسوسات ترى الحافظة حسب ما قدّمنا من مار توما اللاهوتي (المشرق ١ : ٥٣١) تستثبت المعاني التي لا يدركها الحسّ كالنافع والضارّ بيد انهُ ليس هذا الّا فرقاً من الفروق الفاصلة بين هذين القوّتين لا يقوم منهُ تعريف مستوفٍ لماهية الحافظة والشاهد على ذلك ما يزيدهُ المعلّم الملائكي من التفاصيل الخطيرة في شأن الذاكرة وقد بسط ذلك في الخلاصة اللاهوتية في الجزء الاول البحث ٧٩ (ف ٦ و ٧). واذا استخلصنا كُنه اقوالهِ وأقوال العلماء في هذا الصدد يسوغ لنا وضع هذا الحدّ للحافظة: انها قوّة تحفظ النفس من ادّخار معارفها السابقة واستحضارها وتحقيقها. قولنا «معارفها» اشارةٌ الى ان الذاكرة لا تقتصر على إعادة المحسوسات بل تشتمل ايضاً على كلّ ما سبق اليهِ عقلنا وما هجس في خاطرنا وخلد في بالنا. فنتج من ذلك ان الحافظة قسمان متفاوتان تفاوتاً كلياً وهما القسم الحسي تشاطرنا فيهِ الحيواناتُ غير الناطقة والقسم العقليّ يتفرّد بهِ الانسان دون غيره

اما الحافظة الحسيّة (mémoire sensitive, sensible) فربّما دُعيت ايضاً بالحافظة الخياليّة (mém. imaginative) وذلك لانها تحيي فينا صور المحسوسات كالخيال الّا انها تختلف عن الخيال في امر مهمّ وهو علمها اليقين بان هذه الصور المستحضرة تمثّل احساسات سالفة العهد وهذا لعمري فرق ذو شأن يجعل الخيلة

قوّة عرّاء تلحظ جزءًا من الحق فقط بينما تتمتّع الحافظة بكمال النور والجلاء. غير انّ لكل منهما حاجةً ماسّة الى الاخرى لا تكاد هـذه تتحرّك للعمل دون ان تهب تلك الى مساعدتها ويُعكس قال الاب شابين (P. Chabin) في ذلك ما معناهُ: لا تثور في النفس صورة ما ادركناهُ سلفًا الّا وتسرع الحافظة وقت اطلاعنا عليهِ فتذكّرنا الظروف التي احدقت بهِ من سوابق ولواحق وغير ذلك. وكذلك كلما سنح للذهن ذكر حدثٍ او فكرٍ لا تلبث المخيلة ان تحضرهُ في ابدع شكل وتكسوهُ ابهى الألوان فتصبح على هذا الشرط مدعاةً للحافظة الى احياء خواطر جديدة تنعكس هي ايضًا في مرآة الخيال وهكذا تتلاحق التصورات والافعال العقليّة بسرعةٍ ووفرة تضاهيان السيول المتدفّقة. فكأني بالخيال والحافظة اشبه بشقيقتين توأمتين وُلدتا متلاصقتين فلا حياة ولا عمل لاحداهما دون الاخرى تنتفع هذه ممّا تتناولهُ تلك من طعام وشراب كما انّ ما يؤدّي الاولى يمسّ قوام وظائف الثانية

ولبيبٍ يسألنا ما قولنا في الحيوان الابكم هل لهُ حافظة في حصر المعنى اذ ان الحيوان لا معرفة لهُ بالماضي. اجبنا انّ للحيوان حافظةً حقيقيّة وذلك لانهُ يتذكر كالانسان الامور التي لا يتالها الحس الظاهر فيستحضر ما تخيّلهُ سابقًا من نافع او ضارّ من ملائم او غير موافق فالكلب مثلًا يعرف بعد مدّة مديدة من عاملهُ بالحنوّ ويفرزهُ ممن اوسعهُ ضربًا وكذلك يميز الاماكن التي تهنّأ فيها فيعود اليها وينفر عن الامكنة التي نالتهُ فيها الآلام. فينتج من ذلك انّ الحيوان يعلم ما اصابهُ في الماضي لكنّ ذكرهُ لهذه الامور فعلٌ بسيط فهو يتوصّل الى صورة هذه الاشياء الماضية بيد انهُ لا يعرفها معرفة صوريّة (formelle) امّا الانسان فيتأتّى لهُ المقابلة بين ما يعنّ لذاكرتهِ وما سلف من حياتهِ فينقاد بواسطة تلك المقابلة الى تعيين وقت حدوث ما يخطر على بالهِ ومن هـذا القبيل تكون حافظتهُ اشرف واتمّ كما انّ خيالهُ هو ارفع مقامًا واسمى درجة من خيال الحيوان لتصوّرهِ ما لا يقع تحت الحواس كصورة النفس على شكل حمامة وصورة جبل من ذهب الى غير ذلك ممّا لا يمكن الحيوان تصورهُ

هذا وان الانسان لا يقف عند هذا الحدّ فاننا لا نعي سابق احساساتنا فقط بل ننتبه الى ما انتاب خاطرنا من افكار واحكام واقيسة وهذا بفعل الحافظة العقليّة (mémoire intellective) وليست هذه القوة الجليلة باقلّ فائدة من رصيفتها الحسيّة

اذ فيها تستوعب موادّ كل العلوم. وسنعود الى تعريف هذه القوّة العجيبة ان شاء الله. امّا الآن فنقول ان ما يميّز الحافظة العقليّة من الحسيّة فضلًا عن موضوعهما الذي يختلف اختلاف المادّة من الروح هو ان هذه اي الحسيّة تعيد صور الماضيات محفوفة بما رافقها من ظروف المكان والزمان امّا الذاكرة العقليّة فتحضر في البابنا ذكر المعقولات التي وقفنا عليها سابقًا دون ان تقرنها بمكان ولا زمان من تلقاء ذاتها واذا برزت هذه التذكرات العقليّة متشحة بوشاح الاعراض الحسيّة كان هذا من مفاعيل الحافظة الخياليّة التي طالما تلحق زميلتها عند تشخيصها للعمل. ويتضح من ثمّ انّ الحافظة العقليّة قوّة روحانيّة محضة لا يجوز خلطها بعالم الهيولى

ومن انواع القوّة الحافظة نوعٌ يختصّ بالانسان وحدهُ وهو تتبُّع سلسلةٍ من المحسوسات او المعقولات. ولا بدّ لاتمام ذلك من اقامة شبه قياس نظري او عملي نتوصّل بهِ الى ما نروم كشف القناع عن جمل حقيقتهِ. لحظتُ مثلًا انّ دراهمي نقصت ٢٠ فرنكًا فارغب ان اتذكر فيما صرفتها فآخذ في محاسبة نفسي قائلًا: في يوم امس دفعت ٣ فرنكات لفلان. وكنتُ حينئذٍ آتيًا من السوق حيث ابتعتُ بكذا حاجات الّا اني تصدقت قبل ذلك بفرنكين على عائلة فقيرة اعودها مرّة في الاسبوع الى غير ذلك من الجزئيّات حتى آتي على الكل واتخطّى من ذكر امر راهن الى مرتاب فيهِ الى ان تحققت الكل ووقفت عند نتيجة ارتاح اليها. ومن الفلاسفة من يخصّصون بهذا الفرع من الحافظة اسم الذاكرة غير ان هذه اللفظة ترادف اغلب الاوقات اختها الحافظة امّا الافرنج فيدعونها réminiscence ومعنى هذه اللفظة في التحقيق شوارد تذكراتنا التي تتبادر الى ذهننا عفوًا من بيوت شعريّة مثلًا تندمج بالقصائد التي ننظمها او أدوار لحنيّة تمتزج بما نخترعهُ من الاغاني دون ان نحفل بها

لنا الآن قولٌ وجيز عمّا يتألف منهُ عادةً فعلُ الحافظة. فاذا تمسّكنا بتعريفنا السابق نرى انهُ قائمٌ من ثلاثة امور:

الاوّل ثبوت المدركات في الذهن وهذا بمنزلة تمهيد ضروري لقوام امر الحافظة. والثاني إعادتها اي انعاشها من سِنَتها (rappel *ou* réapparition) وهذه شريطةٌ ايضًا لازمة امّا الثالث وبهِ تمتاز قوّة الحافظة عمّا سواها فتحقيق تلك المدركات (reconnaissance) اي ان تنتبه النفس الى حضور الماضيات في الذهن وتيقّن

بانها داخلة في سلك ما انقضى معيدةً للظروف التي رافقتها اول مثولها ومقدّرة لفترة وقوعها وبهذه الخصلة الكريمة تبتعد الحافظة عن الخيلة وتتعالى عنها والّا كادت افعالها لا تمتاز عن حركات قرينتها

امّا هـذا التحقيق فلا يقوم الّا بوجود امرين اولهما وقوفنا على هُوَيّتنـا (identité personnelle) اي احساسنا باننا نحن الذين شعرنا سابقًا بما نتذكرهُ الآن ثانيهما شعورنا بكرّ الزمان المتابع وهذا ليس في الحقيقة الّا شرطًا لما قبلهُ فينجم من هذه المقدّمات ان موضوع ذاكرتنـا الخاص انما هو الاستحالات التي عَرَت نفسنا يومًا فانتبه لها الضمير . فبهذا الاعتبار اللطيف ساغ للمسيو رويه كولار (Royer-Collard) تسطير ما نصهُ : « انّنا لا نتذكّر الّا ذواتنا اي اعمال نَفسنا وحالتها المتنوّعة اذ انما يخطر على بالنا ما وقع رأسًا تحت نقد ضميرنا »

هذا فيما تباشرهُ حافظتنا مباشرةً قانونية غير ان لها من غرائب الامور ما لا نزى ندحةً من ايراد طرفةٍ منهُ . اوّلًا لمّا كانت الذاكرة على فرعين بديهيّة واختياريّة يحدث ان الاولى تستظهر احيانًا على ما تعجز عنهُ الثانية . مثال ذلك أنّنا نطيل بعض المرار استكشاف اسم او تاريخ او حادثٍ يستعصي علينا ادراكهُ فبعد الجهد والعناء لا نحصل على نتيجة مرضيّة الّا انهُ في الغد يهرع الى ذاكرتنا دون ادنى استقصـاء كل ما كان البارحة مطرودًا مدفونًا في غبار الماضي . — ثمّ من خواص الحافظة الغريبة انها تختلف اختلافًا كبيرًا بحسب الاشخاص فمنهم من يسهل عليهِ حفظ الاشكال والالوان ومنهم مَن لا يسقط من ذاكرتهِ شيء من الكلمات او الاصوات او الارقام او الاحاديث او التواريخ او الاماكن (mém. locale) او النُكت الهزلية او الاسماء الخ . لكنّ هذا مع غرابتهِ معروف حتّى من الصبيان . امّا ما ساذكرهُ فنادر اطوار العادة ومنخرطٌ في سلك الحوادث الخارقة . منهُ ظواهر تلقّب الحافظة (amnésie) وهو إمّا كلّي كما جرى لامرأةٍ اميركية فقدت بعد سُبات طويل جميع ما تعلّمتهُ سابقًا حتى اضطرّت ان تتلقّن ثانيـةً حروف الهجاء مع طريقة التلفُّظ بها ثم الارقام والحساب والكتابة شأن الاحداث في المدارس وبقيت على هذه الحالة حتى استولى عليها نومٌ جديد فلمّا استفاقت ثاب الى حافظتها كل ما كانت تعرفهُ قبل نومها الاول عدا ما درستـهُ خلال النومين ثمّ امست تتقلّب بين هاتين الحالتين العجيبتين زمنًا طويلًا — وإمّا جزئي وهو ان ينسى المريض قسمًا

مما فطن اليه سالفًا فالبعض يقوته الاشكال والبعض اسماء الاشخاص او طوائف من الكلام فيحكي من ذلك ان قرويًا اصابه الفالج فاصبح لا يتوصل الى ذكر الموصوفات والافعال بينما كان يأتي على سائر اقسام الكلام

ومن مفاعيل الحافظة انها تزيد قوةً في بعض الاحيان حتى تصل الى حدّ الافراط ولذلك يدعوها الفرنج (hypermnésie) اي الذاكرة المفرطة وفي هذا دليل على انّ الانفعالات الدماغيّة المختصة بالذاكرة لا تُمحى آثارها تمامًا بل يكفيها مُنبّه خصوصي كعرض عضال او حادثة مفجعة لتقدح في النفس شررًا وتثير ذكر ما توارى عن بصرها منذ سنين. قيل انّ شابًا اعتراهُ داء عصبيّ فاتفق لبعضهم ان جاء امامهُ بذكر احدى المدارس وطلبتها فهيّج هذا الحديث في ذهن المريض ما جرى لهُ سابقًا في حياتهِ المدرسيّة قبل خمس او ستّ سنين بحدّة وذكاء هذا مبلغهما حتّى تمكّن من مراجعة فروض انشائيّة سمع تلاوتها ارقات الدروس ثمّ ملاحظات المدرّسين وانتقاداتهم بحروفها

واعجب من ذلك انّ انسانًا باغتهُ قطارٌ وهو سائرٌ بين الاسلاك الحديديّة لا يبالي فلمّا رأى الموت اقرب اليهِ من حبل الوريد رمى بنفسهِ الى الارض ممتدًا على وجههِ لاصقًا بها حتى مرّت عليهِ جميع العربات دون ان تُلحق بهِ اذًى غير انّ شدّة الرعب الذي استولى عليهِ مثّل نصب عينيهِ كل ما فعل في ماضي حياتهِ كما لو كان مسطورًا امامهُ في كتاب

ومن الظواهر التي تُعزى الى علّةٍ في الحافظة فقد النطق (aphasie) وإنهُ هو الّا فرع من فقدان الحافظة ومن خواصّ تلك الحالة المرَضيّ لها انّ الانسان يستطيع نشر افكارهِ بالكتابة الّا انهُ يضيق ذرعًا عن بثّها بالكلم ويظلّ اشبه بالاخرس منهُ بذي النطق وتفسير ذلك مترتب على العلائق الرابطة بين الحافظة والجهاز العضليّ فيعرض لعللٍ خفيّة ان تنقطع تلك الاسباب موقتًا فيتذكّر الانسان صورة الالفاظ ومعانيها دون ان يتوفّق الى التلفّظ بها

مقرّ الحافظة

بقي علينا ان نبحث عن مقرّ الحافظة في الهيكل البشريّ. — قال الشيخ الرئيس ابن سينا نقلًا عن ارسطو ان ساطة القوّة المتذكّرة في التجويف المؤخر من الدماغ.

اما المحدثون فيرتأون انها في التجويف الجبهي الذي يُدعى (lobes frontaux) وفي بعض مراكز السلسلة الفقارية فيذهبون الى انّ كلاً من هذه المواضع محطُّ رحال لطوائف معاومة من صُور الماضي دون غيرها وهكذا يعلّلون اضمحلال الذاكرة الجزئي كما سبقت اليهِ الاشارة ثم ظاهرة فقد النطق

وفي الختام فلقد اعطر شكر للمولى الكريم لانعامهِ علينا بهاتهِ القوّة التي هي اصلح مُعين للعقل البشري فكما ان لا تعقُّل الّا مسبوقًا بفعل المخيلة كذلك لا نتيجة في التفقُّه دون عضد الذاكرة. نعم لولاها لكان سماء بصيرتنا مدلهمًا حالكًا تتقطعهُ حينًا بوارق بروق الافكار ثم يعود الى سابق ظلامه او كانت ارضها قفرًا مجدبًا لا تثمر يانعًا ولا تورق ناضرًا وذلك لتعذُّر استعمال ابدع مزايا فهمنا من تعميم. واحتجاج واقامة دليل او قياس بلا ذاكرة وهب اننا عدمنا هذه الجوهرة النفيسة كانت كل افكارنا وما نحدّها بهِ من اللغى (العبارات) يسقط من عقلنا حال اشراقها في عالم الكوائن وكان يستحيل لمَ شعثها لقضاء اربٍ من نتيجة برهانٍ او ابداء حكمٍ (proposition) فضلًا عن وجود ذريعة لقوام علمٍ من العلوم او لتذكية قوانا النفسانيّة او للمواصلات الالفية او لنوعٍ من اليقين. فحمدًا لمن وجب ذكر آلائهِ مدى الاعوام ومجدًا لمن تحتم تكرار اسمائهِ على الدوام

رسالة الطير

للشيخ الامام محمد بن محمد الغزالي

تولّى نشرها الاب لويس شيخو اليسوعي

في العدد السابق نشرنا رسالةً أولى موسومة برسالة الطير للشيخ الرئيس ابن سينا. ووعدنا بنشر رسالة أخرى بهذا الاسم صنّفها حجّة الاسلام الشيخ الامام محمّد بن محمد الشهير بالغزالي فقياماً بهذا الوعد نزيّن بها هذا العدد من مجلتنا

وهذه الرسالة وردت في المجموعة التي وصفناها سابقًا ولا نعلم لها نسخة ثانية وقد وقع فيها بعض أغلاط أصلحناها ودللنا عليها في الذيل بحرف (ص) وهذه الرسالة رمز لطيف الى احوال

المرء وترقّيه الى الله وقد اراد بالطير جماعة البشر الذين يسعون في امور الروح ويطلبون الله وكنى بالعنقاء عنهُ تعالى ملك الملوك ورب الارباب. امّا الهمن التي يلقاها الطير في سيره الى العنقاء فهي رمز الى بلايا هذه الحياة وشدائدها التي تؤهل المرء اذا صبر عليها وتجلّد لها لان يحظى بمشاهدة الحضرة الالهيّة والدخول في الجنان السرمدية

(٦٣٧) بسم الله الرحمن الرحيم

اجتمعت اصناف الطيور على اختلاف انواعها وتباين طباعها وزعمتْ ان لا بُدَّ لها من ملك. واتفقوا انهُ لا يصلح لهذا الشأن الّا العنقاء (١ وقد وجدوا الخبر عن استيطانها في مواطن الغرب وتقرُّرها في بعض الجزائر فجمعتهم داعية الشوق وهمّة (٢ الطلب فصمّم العزم على النهوض اليها والاستذراء (٣ بظلّها والمثول بفنائها والاستمداد بخدمتها فتناشدوا وقالوا:

قوموا الى الدار من ليلى نحيّيها نعم ونسألها عن بعض اهليها

واذا الاشواق الكامنة قد برزت من كمين القلوب وزعمت بلسان الطلب

باي نواحي الارض ابغي وصالكم وانتم ملوكٌ ما لمقصدكم نحوُ

واذا هم بمنادي الغيب ينادي من وراء الحجب: ولا تُلقوا بايديكم الى التهلكة لازموا اماكنكم ولا تفارقوا مساكنكم فانكم ان فارقتم اوطانكم ضاعتم اشجانكم فدونكم والتعرُّض للبلاء والتحلّل (٤ بالفناء.

ان السلامة من سعدى وجاوتها ان لا تحلَّ على حال بواديها

فلمّا سمعوا نداء التعذّر من جناب الجبروت ما ازدادوا الّا شوقًا وقلقًا وتحيُّرًا وأرقًا وقالوا من عند آخرهم (٥ :

ولو داواك كلُّ طبيب أُنسٍ بعين كلام ليلى ما شفاكا

---

١) راجع ما كتب عن العنقاء حضرة الكاتب المتفنن الاب انستاس الكرملي في المشرق (١ : ١٦٦ و ٣٧٦) ٢) في الاصل (ص): وهمّت ٣) ص: والاستدراء

٤) اي التنزل. ولعلّها التخلّل ٥) كذا في الاصل. ولعلّ الصواب من عن آخرهم

وزعموا

انَّ المحبَّ الذي لا شيء يقنعهُ او تستقرَّ ومن يهوى بهِ الدارُ

ثم نادى لهم الحنين ودبَّ فيهم الجنون فلم يتلعثموا في الطلب اهتزازًا منهم الى بلوغ الارب. فقيل لهم: بين ايديكم المهامه الفيح والجبال الشاهقة والبحار المغرقة واماكن القرّ ومساكن الحرّ فيوشك ان تعجزوا دون بلوغ الامنيَّة فتخترمكم المنيَّة فالاحرى بكم مساكنة اوكار الاوطار قبل ان يستدرجكم الطمع واذا هم لا يصغون الى ذلك القول ولا يبالون بل رحلوا وهم يقولون:

فريدٌ عن الخلاَّن في كلِّ بلدةٍ اذا عظُمَ المطلوب قلَّ المساعدُ

فامتطى كلٌّ منهم مطيَّة الهمَّة قد ألجمها بلجام الشوق وقرَّبها بقوام العشق وهو يقول:

انظرْ الى ناقتي في ساحة الوادي شديدةِ ألسرى(١ من تحت مَيَّادِ

(64ª) اذا اشتكت من كلال البين اوعدها روح القدوم فتحيا عند ميعادي

لها بوجهك نورٌ تستضيء بهِ وفي نوالك من اعقابها جادي

فرحلوا في محجَّة الاختيار فاستدرجتهم بحدّ الاضطرار فهلك من كان من بلاد الحرّ في بلاد البرد ومات من كان من بلاد البرد في بلاد الحرّ وتصرَّفت فيهم الصواعق وتحكَّمت عليهم العواصف حتى خلصت منهم شرذمة قليلة الى جزيرة الملك ونزلوا بفنائهِ واستذروا (٢ بجنابهِ والتمسوا من يخبر عنهم الملك وهو في امنع حصن من حمى عزّهِ. فأُخبر بهم فتقدَّم الى بعض سكَّان الحضرة (٣ ان يسألهم ما الذي حملهم على الحضور. فقالوا: حضرنا ليكون مَلِكنا. فقيل لهم: أتعبتم انفسكم فنحن الملك شئتم او ابيتم جئتم او ذهبتم لا حاجة بنا اليكم

فلمَّا احسُّوا بالاستغناء والتعذُّر أيسوا وخجلوا وخابت ظنونهم فتعطَّلوا. فلما شملتهم الحيرة وبهرتهم العزَّة قالوا: لا سبيل الى الرجوع فقد تحاذلت القوى وأضعفنا الجوى

---

١) قطع همزة أل التعريف في السرى لاستقامة الوزن

٢) ص: واستدروا

٣) يريد بسكان الحضرة اهل الملكوت الذين يحفُّون بنظرهِ تعالى

فليتنا تُركنا في هذه الجزيرة لتماوت من عند آخرنا (١ وانشأوا (٢ يقولون هذه الابيات

أسكّان رامة هل من قِرى فقد دفع الليل ضيفًا قنوعا
كفاهُ من الزاد ان تمهدوا لهُ نظرًا وكلامًا وشيعا (٣

هذا وقد شملهم الداء وأشرفوا على الفناء والجُوا (٤ الى الدعاء.

تُمل (٥ نشاوى بكأس الغرام فكلٌّ غدا لأخيهِ رضيعا

فلما عمهم اليأس وتضايقت بهم الانفاس تداركهم انفاس الايناس وقيل لهم: هيهات فلا سبيل الى اليأس فلا ييأس من رَوح الله الّا القوم الخاسرون(٦ . فان كان كمال الغنى يُوجب التعزز والردّ فجمال الكرم اوجب السماحة والقبول فبعد ان عرفتم مقداركم في العجز عن معرفة قَدرنا فحقيق بنا ايواؤكم فهو دار الكرم ومنزل النعم فانهُ يطاب المساكين الذين رحلوا عن مساكنة الحسبان ولولاهُ لما قال سيد الكلّ . وسابقهم احيا مسكينًا (64ب) ومن استشعر عدم استحقاقهِ فحقيق بالملك العنقاء ان يتخذهُ قرينًا

فلما استأنسوا بعد ان استيأسوا وانتعشوا بعد ان تعسوا ووثقوا بفيض الكرم واطمأنّوا الى دوور النعم سألوا عن رفقائهم فقالوا: ما الخبر عن أقوام قطعت بهم المهامه والاودية أمطلولٌ دماؤهم ام لهم دية . فقيل هيهات هيهات « ومن يخرج من بيتهِ مهاجرًا الى الله ورسولهِ ثمّ يدركهُ الموت فقد وقع اجرهُ على الله » (٧ . اجتبتهم أيادي الاجتباء بعد ان ابادتهم سطوة الابتلاء ولا تقولوا لمن يُقتل في سبيل الله أموات بل أحياء . قالوا: فالذين غرقوا في لجج البحار ولم يصلوا لا الى الدار ولا الى الديّار بل التقمتهم لهوات التيّار قيل: هيهات « ولا تحسبنّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتًا بل احياء » (٨ . فالذي جاء بكم واماتهم أحياهم والذي وكّل بكم داعية الشوق حتى استقللتم العناء والهلاك في اوبحيّة الطلب دعاهم وحملهم وادناهم وقرّبهم فهم في حجب العزّة واستار القدرة « في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر » (٩ . قالوا : فهل لنا الى مشاهدتهم سبيل . قيل:

---

١) كذا في الاصل . ولعلهُ أراد من من آخرنا
٢) ص: وانسوا
٣) كذا
٤) ص: لجُّوا
٥) ص: حمل
٦) ص: الخاسرون
٧) من سورة النساء
٨) من سورة آل عمران
٩) من سورة الرحمن

لا . فانكم في حجاب العزّة واستار البشريّة واسر الاجل وقيده فاذا قضيتم اوطاركم وفارقتم اركاركم فعند ذلك تزاورتم وتلاقيتم (١ . قالوا : والذين قعد بهم اللوم والعجز فلم يخرجوا . قيل : هيهات ولو أرادوا الخروج لأعدّوا لهُ عدّة ولكن كَرِهَ الله انبعاثهم فثبّطهم لو اردناهم لدعوناهم لكن كرهناهم فطردناهم . انتم بانفسكم جئتم ام نحن دعوناكم ؟ انتم اشتقتم ام نحن شوّقناكم ؟ نحن اقلقناكم فحملناكم وحملناهم في البرّ والبحر . فلمّا سمعوا ذلك واستبصروا بكمال العناية وضمان الكفاية كمل اهتزازهم وتمّ وثوقهم فاطمأنوا وسكنوا واستقبلوا حقائق اليقين بدقائق التسكين وفارقوا بدوام الطمأنينة أمكان التلوين ولتعلمنّ نبأهُ بعد حين

(فصل) أترى هل كان بين الراجع الى تلك (٦٩) الجزيرة وبين المبتدئ من فرق . انّما قال جئنا ملكنا من كان مبتدئاً إمّا من كان راجعاً الى عيشهِ الاصلي . يا ايتها النفس المطمئنة ارجعي فرجع اسماع النداء كيف يقال لهُ : « لِمَ جئتَ » . فيقول : « لم دُعيت » لا بل فيقول لم حملت الى تلك البلاد وهي بلاد الغربة . والجواب على قدر السؤال والسؤال على قدر التفقّه والهموم بقدر الهمم

(فصل) من يراع لمثل هذه النكت فليجدّد العهد بطور الطيريّة واريحيّة الروحانيّة فكلام الطيور لا يفهمهُ الّا مَن هو من الطيور وتجديد العهد بملازمة الوضوء ومراقبة اوقات الصلاة وخلوة ساعةٍ للذكر فهو تجديد العهد الحلو في غفلة لا بُدّ من احد الطريقين فاذكروني اذكركم أرَ نسوا الله فنسيهم فمن سلك سبيل الذكر انا جليس من ذكرني ومن سلك سبيل النسيان ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض لهُ شيطاناً فهو لهُ قرين وابن آدم في كلّ نفَس مصطحب احد هذين النسبتين ولا بُدّ يتلوهُ يوم القيامة احد السيائين . أما يُعرف المجرمون بسياهم او بسياهم في وجوههم من اثر السجود انقذك الله بالتوفيق وهداك الى التحقيق وطوبى لك الطريق انهُ بذلك حقيق . والحمد لله رب العالمين وصلّى الله على محمد وآلهِ اجمعين

مُلحق

هذه رسالة الطير التي اوردناها عن الامام الغزّالي قد اخذها عنهُ كثيرون من جملتهم عزّ الدين عبد السلام بن غانم المقدسي المتوفّى سنة ٦٧٨ هـ (١٢٨٠ م) وقد ختم بها كتاباً لطيفاً سمّاهُ كتاب

١) ص : تلافيتم

كشف الاسرار عن حكم الطيور والازهار في خزانة مكتبتنا منهُ نسختان خطيتان . فالاشارة الاخيرة من هذا الكتاب تدعى اشارة العنقاء وما هي الّا رسالة الطير السابق ذكرها نوردها هنا تتمّة للافادة وليتمكّن القراء من المقابلة بينهما

اشارة عنقاء مغرب

اجتمعت الطيور يوماً وقالوا لا بدَّ لنا من ملك نعترف لهُ ونُعرف بهِ فهلمُّوا نتطلق في طلبهِ ونستمسك بسببهِ ونعش في ظلّهِ ونعتصم بحبلهِ وقد بلغنا ان في بعض جزائر البحر ملكاً يقال لهُ عنقاء مغرب قد نفذت احكامهُ في المشرق والمغرب فهموا بنا اليهِ متوكلين عليهِ فقيل لهم: ان البحر عميق والطريق مضيق والسبيل سحيق واعلموا انهُ بين ايديكم جبال شاهقة وبحار مغرقة وثيران محرقة فلا سبيل لكم بالاتصال ولو قُطعت منكم الاوصال فدون وصالهِ حد النصال. فاقرنَّ في اوكاركنَّ واعترفنَّ بعد انكاركنَّ فان العجز من شأنكنَّ والملك غنيٌّ عنكنَّ والله غني عن العالمين اما سمعتم صائح القدر يقول: ويحذركم الله نفسهُ فقالوا صدقت ولكن مناديه ينادي ففرُّوا الى الله جميعاً فعندها طاروا باجنحة يتفكرون بخلق السماوات والارض صابرون على ظلمِ الهواجر باشارة قولهِ تعالى: ومن يخرج من بيتهِ مهاجرًا الى الله فسلكنَّ سبيلًا عدلًا ان اخذنَّ ذات اليمين ارمتهنَّ الرجاء. وان اخذنَّ ذات الشمال احرقتهنَّ حرارة الخوف. فهم بين سباق ولحاق واغتراق وتلاشٍ وافتراقٍ وتناشٍ واستغراق حتى وصل منهم من وصل الى ان اتوا جزيرة الملك بعد ان سقط ريشهُ وتكدَّر عيشهُ وتضاعف نحولهُ وتزايد ذبولهُ ووصلوا اليهِ خماصاً بعدما كنَّ بطاناً وجنتهُ فرادى بعدما فارقنَّ اوطاناً. قال فلمَّا نظروا الى جزيرة الملك فاذا فيها ما تشتهي الانفس وتلذُّ الاعين فمن كانت همتهُ في المأكول والمشروب قيل لهم كلوا واشربوا هنيئاً بما اسلفتم في الايام الخالية ومن كانت همتهُ في الملابس والنفائس قيل لهم يلبسون من سندس واستبرق متقابلين ومن كانت همتهُ في العرائس قيل لهم وزوجناهم بحور عين واما اهل الانفة فقالوا سبحان الله اذا كان ثم الاشتغال بمأكول ومشروب فمتى يتفرغ المحب للمحبوب. ومتى ينالُ الطلب من شرف المطلوب فالدون كل الدون من رضيَ بصفقة المغبون نحن ما نريد الّا الملك الذي قد قطعنا لاجلهِ المراحل والرواحل وقطعنا اليهِ كل حاجز وصابرنا على ظلماء الهواجر حيث قال تعالى ومن يخرج من بيتهِ فهاجر الى الله فنحن نشتغل بالملابس والمفاخر ولم يكن قصدنا الّا النظر الى وجه

الملك فلمَّا مثلوا بين يديه قال لهم ويحكم لِمَ جئتم وبايِّ شيء اتيتم فاني لغنيٌّ عنكم قالوا انت الغنيّ ونحن الفقراء وانت القويّ ونحن الضعفاء فلا قوة لنا نرجع بها الى قوانا واضمحل وجودنا مما قد اعترانا. فقال لهم الملك ان صح افتقاركم فعليَّ جبادكم انطلقوا فداووا العليل في ظل ظليل وقبلوا غير مستقيل واحسن مقيل فمن غلب عليه برودة الرجاء فليشرب من كأس كان مزاجها زنجبيلًا ومن استولت عليه مرارة الشوق فورًا فليتناول بكاس كان مزاجها كافورًا. ثم قولوا للعاشق سل سبيل فاذا صحَّت الحمية قدموا العليل الى طبيبه والمحب الى حبيبه ولثَّاهم نظرةً وسرورًا ورقاهم ونقاهم وسقاهم شرابًا طهورًا فسكروا حين شربوا فطربوا ثم استزيدوا فزيدوا ثم استجيبوا فطاروا باجنحة الانس فاذا هم في حضرة القدس فسقطوا ليلتقطوا حبة الحبة في مقعد صدق عند مليك مقتدر فحاصلوا حين وصلوا فاما حضروا فاذا الحجب قد رفعت والاكواب وقد وضعت والاحباب وقد جمعت فنالوا ما لا عين رأت ولا اذن سمعت فقيل عند ذلك في هذا المعنى شعر

يا قلبُ بشراكَ ايامُ الرضا رَجعتْ ... وعُذبَ الدَّارُ للاحبابِ قد جُمعتْ
أما ترى نَفَحات الحيِّ قد عبقتْ ... أنفاسُها وبُروقَ القُرْبِ قد لَمعتْ
فعِشْ هنيًّا بوصلٍ غير مُنفصلٍ ... مع مَنْ تُحبُّ وحُجبُ الهجرِ قد رُفعت
وانظُرْ جمالَ الَّذي من أجلِ رُؤيتِهِ ... قُلوبُ عُبَّادِهِ في حُبِّهِ انْصَدَعتْ

الصابئة او المندائية

بقلم الاب الفاضل والباحث المدقق انستاس الكرملي البغدادي

(تابع لما سبق)

متقداصم (تابع)

اما من جهة اعتقادهم بالمسيح ويوحنا المعمدان فاليك تعريب ما قرأتهُ في "الكنزا" لا كما يوردهُ عوامُّهم قال وقولهُ كلهُ كذب كما سترى: «فأُعيد عليكم الكلام

يا تلامذتي (١ ان « مشيها » (المسيح) ويُقال لهُ عطارد (٢ سوف يختفي عدَّة اشهر في احشاء « أم بتول » ثم يبرز منها بجسدهِ . فيربو في حجر والدتهِ ويرضع من لبنها وينشأ بين ظهراني اليهود ويعرض مذهبهُ كلهُ منذ اول نشأتهِ . ثم يُعدّ لنفسهِ عبَدةً لهُ ويُكرهُ اصحابهُ على استشعار المِرعزا.(٣ وجزّ شعور الرؤوس فيرين الهوى على قلوبهم من حيث لا يدرون . ثم ان اصحابهُ يقومون بعيده يوم الشمس وسوف يقول لهم : « اني إلهٌ حق وقد ارسلني ابي الى هنا . اني انا اول الرُسُل وخاتمهم . اني الآب واني الروح القدس وقد نبغت في الناصرة » ولهُ عرش . وسوف يرفع الناسوت بالناسوت . وسوف ينتقل الى اورشليم

« هذا وان اليهود سوف يتألبون اليهِ بما يرون منهُ وسوف يُريهم معجزات وآيات غريبة حتى انهُ ينشر الموتى من القبور ويُعيد الكلام اليهم . وسوف يدعو اليهود ويقول لهم : تعالوا وعاينوا فاني أُحيي الموتى وانشرهم وادفع الفدية واني انا « أنوش الناصري ». هذا وان الروح نفسهُ سوف يُسمع صوتهُ في اورشليم ليشهد لهُ . اما مشيها فانهُ يفتن ابناء الناس يعمدهم بماء قابل النشف ويغيّر عماد الحياة اذ يُعتمد المتشيّعين لهُ : « باسم الآب والابن والروح القدس » ويُزحزح الناس عن عماد الحياة الذي تعمَّد بهِ آدم في مياه الاردن الحيَّة

وفي ذلك العهد يولد ابنٌ اسمهُ « يهيي بن ابو ساوا وزكريّا » ويأتيهِ في شيخوختهِ . ويكون عمر امهِ « إينشوي » مائة سنة حينما تحبل بهِ . وتلدهُ في هرمها . واما « يهيي » فسوف ينشأ في اورشليم لان الايمان يكون في صدرهِ وسوف يطوف الاردن ويعتمد الناس

---

١) هذا كلام مثل زيوا وهو الروحاني الذي نزل الى العالم واوحى كتاب الكنزا الى ابينا آدم على ما يعتقدهُ الصابئة . وقد اخرج كلامهُ مخرج النبوَّة لانهم يعتقدون كلّ الاعتقاد بقدم كتابهم هذا وبانهُ ينبّأ عن جميع الاديان التي تحدث على وجه الارض وعن جميع الوقائع التي تقع فيهِ في مستقبل الزمان الى نهاية العالم

٢) وبالصابئيَّة أنبو . قُلتُ : يعتقد المندائيون ان كلّ واحد من السيَّارات هو صاحب ديانة على الارض وقد جاؤوا اليها هابطين من العلاء شيئاً بعد شيء ثم رجعوا اليها بعد تمكين ديانتهم في العمور . ولهم في سيَّاراتهم عوالم وسماء ومحلّ عذاب الى غير ذلك . وعندهم انّ المسيح هو عطارد كما ترى .

٣) اي على اتخاذ شعر المعز شعاراً يلبسونهُ

مدة ٤٢ سنة قبل ان يأتي العالم عطارد المتجسد. وبعد ولادة يحيى في اورشليم بينما يطوف صقع الاردن ويعتمد سوف يأتي: « مشيها » (المسيح) ويتقدم بتواضع ليصطبغ بعماد يحيى وينتفع بحكمته. لكن « مشيها » سوف يعبث بمذهب يحيى ويغير عماد الاردن. غير انهُ في اليوم الذي يتمّ يحيى مهمتهُ آتي اليهِ واظهر لهُ حينما يكون ابن ٣ سنين ويوم واحد لأكلمهُ عن العماد واشرح لهُ النعمة الالهية وفي آخر الامر استلّ روحهُ من جسدهِ وارفعهُ بالطهارة والنقاء الى « آلما دَنهورا » وأعمدهُ في الماء الحي المنعش ماء الاردن الزلال وألبسهُ لباس المجد واضع على مفرقهِ التاج النير وأسمعهُ أنشودة القلب الطاهر تلك الانشودة التي تشبه الأغنية التي يغنيها ملوك النور ويرنّحون بها « ماكا دَنهورا » الى دهر الداهرين

« الّا ان العالم ينحاز الى الكذب بعد يحيى. ويدفع المسيح جميع الشعوب الى اتباع تعاليمهِ. ومثلهُ يفعل اثنا عشر من الرجال الذين سوف يطوفون العالم مدة ٣٠ سنة وفي تلك الحقبة يظهر الدجال في الدنيا. ويقيم الدعوى عليهِ ويسلّمهُ الى ايدي اليهود ويتركهُ اصحابهُ يموت مسمّرًا على صليب. فحينئذٍ ينتشر اصحاب المسيح على وجه البسيطة واما هو (اي المسيح) فيختفي على جبل « مورا ». وكما انّ الشمس تبقي بخارًا بعد وَهجها فان هذا المسيح يثير ايضاً في الارض تعاليمهِ. اما ابناء الناس الذين دانوا بدين الكذبة السبعة المعروفين باسم « مدبري الكواكب السبعة » فانهم يصيرون الى النار ». اه كلام الكنزا

هذا ونكتفي بهذا القدر من ذكر بعض معتقدات الصابئة لان مجال هذا الموضوع فسيح والإحاطة بهِ في صفحات قلائل ضرب من المحال. وقد رأيت مما مرّ بك ان ديانتهم خليطٌ من جميع الاديان التي سبقت الميلاد وعقبتهُ فقسْ ما بقي على ما تقدّم الكلام عليهِ. هدى الله الزائغين من نهج الحق الى الصراط المستقيم

ذكر شيء من شعائرهم الدينية

ليس للمندائية محلّ صلاة عمومي يجتمعون فيهِ كما هو المألوف عند سائر اصحاب الاديان بل الذي ينوب عنهُ هو النهر فلا تتمّ سُنّة من سُننهم الّا في « الماء العذب الجاري » وينتحونها بصلواتٍ يتلونها قبل ولوجهم الماء ويختمونها بصلواتٍ أخرى

يُزمزمون بها عند خروجهم منهُ . ومن السنن التي يمتازون بها ما يسمُّونهُ بالعربيَّة « العماد او المعموديَّة » وبلسانهم : ماوطا (مَصْوَثا) وهو لا يشبه عماد النصارى الَّا من وجه واحد وهو التغطيس بالماء لا غير . والعماد عندهم على ثلاثة اقسام : ١ً عماد الولادة والزواج ٢ً عماد الجنابة ٣ً عماد الجماعة

١ً فامَّا عماد الولادة فيكون على الوجه الآتي : عند ما يُولد الطفل يذهب واحد من اقاربهِ الى الكاهن ويذكر لهُ يوم ولادة الطفل والساعة التي جاء فيها . وحينئذٍ يراجع الكاهن كتابًا خصوصيًّا اسمهُ اسفر ملواثا (وتُلفظ : أَسْفَر مَلواثا ومعناهُ : كتاب ساعة الحبل) فيبحث الكاهن في الكتاب عن الاسم اللائق بالمولود وبعد ان يتمّ الحساب يقول لطالب اسم الوليد : « اسمهُ كذا » . واغلب الاحيان يكتبهُ على ورقةٍ ويسلّمها بيد الطالب المذكور ليأتي بها يوم تعميد الوليد . والعادة الجارية عند الصابئة انهم يسمون الولد باسم ثانٍ بلسان البلد الذي يوجدون فيهِ فيكون عربيًّا في بلاد العرب وفارسيًّا في بلاد الفرس وهلمَّ جرًّا . وحينئذٍ لا يذكر الاسم الديني الَّا في الشعائر الدينيَّة وما كان من بابهـا . غير انهُ يوجد صابئون من لا يسمُّون اولادهم الَّا باسم واحد هو الاسم المنداني الديني لا غير . فيُعرفون بهِ دينًا ودنيا

ثم بعد ان يمضي على المولود اربعون يومًا يفكّر اهلهُ في تعميد ولدهم . ولا يجوز ابدًا العماد قبل هذه المدَّة لكن يجوز اطالتها الى مدة تفوت الشهرين . وفي اليوم المعيَّن يحمل واحد من الاقارب او الاصدقاء ان ذكرًا وان انثى الوليد الذي يُراد تعميده ومع الجماعة والدة الولد (١ . ويذهب الجميع الى الكاهن واسمهُ عندهم ماذهبا (ترميذا اي التلميذ) فيلبس حُلَّتهُ الكهنوتيَّة او الدينيَّة واسمها عندهم « ذاهذا رَشتَه » ثم يمسك

---

١) لا يكون يوم عماد الولد الَّا نهار الاحد ولا يجوز تعميده في ايام الاعياد ولا أيام الاسبوع بخلاف ما ذكرهُ حضرة الفاضل نقولا الدوفي . ولا يجوز العماد قبل هـذه المدة (اي مدة الاربعين يومًا) لان الولد والوالدة يُعتبران نجسَين وكل من يلمسهما قبل العماد يتنجَّس ويجب عليهِ الاغتسال ولا يجوز للوالد نفسهِ ان يذبح ذبائح قبل المدَّة المذكورة ايضًا . ولا يُعمد الوليد ما لم تُعمد الوالدة قبلهُ . امَّا سبب وجوب التعميد نهارًا فهو لان « شيَّاربًا » من روحانيّيهم يذهب في ذلك النهار الى « مُشُوقي كُشْطا » وهو عالم ثان على زعمهم فيهِ نورٌ دائم وسكَّانهُ من الصابئة ليُعمَّد من يحتاج الى هذه في ذلك العالم

عصاً خصوصيَّة يسمونها « مطاخا مَركَنا » وينطلق بالمرأة والوليد وحامل الولد والجمع الحاضر الى ماء عذب جارٍ ما كان . ومعهُ شماسان صغيران واسم الشماس عندهم « مطابا » (شكندا) فاذا صار الى حافة الماء يتلو صلاة افتتاحيَّة ثم يلبس الشماس والوليد رَستهما وبعد ذلك يسأل التلميذ عن اسم الولد فيُذكر لهُ ثم يأخذ الشماسُ الولدَ فيتلو الكاهن على رأس الطفل صلوات يستنزل عليهِ بركات العماد ويعتني كل الاعتناء ان لا يسقط من رأس الولد او من رستهِ شيء ابدًا والَّا فان سقط من المتعمد لفافة او نحو ذلك فيجب على المعمّد ان يتعمّد ٣٦٠ مرَّة قبل ان يُعمد الولد و ٧٠٠ مرَّة اذا وقع شيء من الكاهن المعمّد نفسه. وبعد ان ينتهي الكاهن من تلاوة الصلاة يضع في اصبع المتعمِّد خاتمًا من عود الآس ثم ينزل الكاهن في الماء ومعهُ الإشكندا حاملًا الطفل بحيث يبلغ الماء ركبة النازلين فيهِ بدون ان يجوز لهم رفع شيء من ثيابهم الدينيَّة . ثم بعد ذلك يغرف المعمّد ماء بيديه ويلقيهِ على الطفل ثلاث مرات الى ان يتبلَّل ثم يقول لهُ بالمندائيَّة (١ : فلان بن فلان . انك تعمّدت بعماد بهرام العظيم ابن رُربي (فعسى هذا العماد) يحفظك ويُصعدك الى أعلى (آلما دنهورا) بجاه اسم هيّي (الحياة) واسمهِ مَندا دهيّي (معرفة الحياة او رسول الحياة) المذكورَين عليك (٢ . وبعد ذلك يخرج جميعهم من الماء ثمَّ يستلّ الكاهن خاتم الآس (واذا لم يوجد في البلد آس يُبدل بالمرماحوز الذي يسمّى ايضًا بالماحوز او بالمرو الماحوزي marum) من اصبع الولد ويضعهُ على جبينهِ تحت عمامتهِ (والعمامة تسمّى عندهم كترَالا خاءالا) وبعد ان يصلي الكاهن هنيهةً يسجد (ومعناهُ عندهم يحني رأسهُ وصدرهُ وهو يفعل ذلك كلَّ مرَّة يذكر اسم

---

١) وهذه صورة حرفية بالآرامية : فلان بر فلان وحاد عماد وحاد عماد بهرام عظيم وحاد عماد بهرام عظيم وحاد عماد بهرام عظيم

وتلفظ : فلان بَر فلان صبَوتَ بهصوتَا دبهرام ربا بر رُربي مصوتخ تناطرَخ يشَّق لريش أشا دهيّي أشمي دمندا دهيّي مدخر أخ

٢) روايتنا هذه تختلف كثيرًا عن رواية نيقولا السبوني وسبب ذلك هو ان السيد المذكور اعتمد على كلام واحد من الصابئة لا يعرف الَّا القليل من ديانتهِ ولهذا عدا كتابهُ بمنزلة كتاب ديانة تواطأ على اختلاقها السيد المذكور مع الصابئ المعلم . اما اعتمادنا فهو على الكتب وجماعة عديدة من الشيوخ المندائية . ولا يتحقَّق صدق هذا الكلام الَّا من قيَّض الله لهُ المجيء الى هذه البلاد والوقوف على الكتب الدينية الراجعة الى هذه النحلة او مشافهة جماعة من شيوخهم العلماء

روحانيّ عظيم) ثم يأخذ بيدهِ اليسرى شيئاً من الكندر ويُلقيهِ في نار قد أوقدت في موقد على هيئة ما يسمّيهِ العامّة بالمنقل ويتّخذ من الطين الحرّ ويُوقف لهذه الغاية في مثل هذه السُّنّة . وبينما يُلقي البخور على النار يقول : (ﻣﻪ ﻣﻪ ﻣﻪ ﻣﻪ) ويصعد (وتُلفظ : ريها ذبيّم) اي لتفُح رائحة (وليس معناها كما قال المرحوم نقولا السيوفي : « رائحة ذكيّة ») وبعد ذلك يضع الكاهن في يدهِ اليسرى مقدار عشر سنبلات من سنبل مُخلّص موضوع في كيس لهذه الغاية ثم يُريق عليهِ شيئاً من الماء يأخذهُ بقنينةٍ من ماء النهر قبل خروجهِ منهُ ثم يلثهُ بانامل يدهِ اليمنى ويضع منهُ ثلاث مرات على جبين الولد ممرّاً يدهُ من الصدغ الواحد الى الصدغ الآخر وهو يقول كل مرة : « ﻭﻣﻪ ﻣﻪ ﻭﻣﻪ ﻣﻪ ﻭﻣﻪ ﻣﻪ ﻭﻣﻪ ﻣﻪ ﻭﻣﻪ ﻣﻪ ﻭﻣﻪ ﻣﻪ ﻭﻣﻪ ﻣﻪ » وتُلفظ : وشيمت برشما ذهيّ . أشا ذهيّ وأشا دمندا ذهيّ مدخر الخ اي : لقد وُسمتَ بسمة الحياة . اسم الحياة واسم معرفة الحياة مذكوران عليك . ثم يصلّي صلاة طويلة ثم يذكر في قلبهِ بنوع لا يسمعهُ احد اسماء سرّيّة ويذكر كل اسم على كل عقدٍ من عقود اصابعهِ الخمس راضماً كل مرّة طرف ابهامهِ على كلّ عقدٍ ويذكر ٦١ اسماً . وهذه الاسماء لا تُذكر لأحد حتى ولا للصابئة واذا قُلّد الكاهن رتبتهُ يقول لهُ مقلّدهُ الرظيفة حينما يصل الى تعليمهِ هذه السُّنّة من ديانتهِ : « وعليك الآن ان تُظهر الاسماء التي هي مذكورة في هذه الصفحة لوقت الحاجة » فيجتهد المترشح لحفظها على قلبهِ بدون التلفُّظ بها ثمّ بعد ان ينتهي المعتمد من هذه الاسماء يلثم طرف عمامتهِ ويضعها على كلّ من عينيهِ مرّاتٍ عديدة ثمّ يُنزع الخاتم من جبهة المتعمّد ويُلقى في النهر ثم تنزع ثيابهُ وهكذا ينتهي العماد . واجرة العماد لا تتجاوز نصف الفرنك . وهي اجرة واجبة الدفع واذا ادّى المتعمّد اكثر من ذلك فيكون ذا من الامور المحمودة . واذا تُوفي المتعمّد في اثناء العماد فامّا ان يتمّم الكاهن السنّة الى آخرها على الميت واما ان يوثق بواحدٍ من المندائيّة يُشبه اسمهُ اسم الميت ويُنهي عليهِ تتمّة الحفلة الدينيّة

امّا ما ذكرهُ المأسوف عليهِ نقولا السيوفي فهو زوائد لا تُطابق الحقيقة والدليل على ذلك اني كنت قد اخذت سِفرهُ معي في تجوّلي في بلاد الصابئة ولمّا تلوتُ على الحضور سنّة العماد رأيتُ طائفة منهم يفرغون وسعهم في اخفاء ضحكهم عند تلاوة تلك المُختلقات فمنهم من كان يسدّ فمهُ بطرف ثوبهِ . ومنهم من كان يجعل رأسهُ بين يديهِ ومنهم من كان ينهض من المجلس خوفاً من استغراقهِ في الضحك ومنهم من كان يُحرّق

الارثم ضبطاً لنفسه الى نحو ذلك من الامارات المشعرة بضعف ما اوديه على مسامع الجلاس. ولما انتهيتُ من زيارتي لهم اخذني الشيخ على انفراد وقال لي: ان اغلب ما ذكرتهُ من الامور الفرّية فان شئت احضر هنا نهار الاحد في الساعة الفلانيّة واشهد عماداً ثم علّق ذلك على كنّاشتك. ففعلتُ. وما قرأتهُ هنا هو رواية ما شاهدتهُ بعيني. فاينتبه القارئ

اما عماد الجَنابة فيكون تقريباً على الوجه المارّ ذكره. ويتحتم على الصابئ كلّ مرة يجنب. وهو يجنب في امور كثيرة منها: لمس ميتٍ او مولودٍ او نفساء او حائض او دم حيوان مذبوح على غير سنّتهم. ومنها اذا عضّ الصابئ كلبٌ او حيوان آخر فادماهُ. وكذلك اذا نهشتهُ حيّة او لسعتهُ عقرب او نحوهما من الهوامّ. ومنها اذا ذهب الواحد منهم الى بلادٍ اصحابها معذورون او اكل من لحم لم يذبحهُ واحدٌ من الموظفين بذلك. او أُودع السجن او أتى امرأتهُ او احتلم الى غير ذلك من الامور التي اذا عمل بها المنداني التقي الورع فلا يكاد يخرج من الماء. ولذا ترى كثيرين منهم لا يحتلمون بتاتهم هذه الّا في النادر

واما عماد الجماعة فلا يكون الّا في عيد واحد يسمونهُ: « فاما » وتُلفظ: « پَنجه » وهي كلمة فارسيّة معناها (عيد) خمسة (الايام). وفي ذلك النهار يتألب المندائيّة من كلّ اوب وصوب فيدخلون النهر ثم يقرأ عليهم الكاهن صلوات يكثر في مطاويها ذكر لفظتين وهما: « مانا هايي » وتُلفظ: « هَلّنْ زيانا » ومعناها: « هذه النفوس » فظنّ حضرة نيقولا السيوفي ان معنى هاتين اللفظتين هو اسم تلك الجماعة. وقد قال في كلامهِ عن هذا العماد ان الحضور يُعمدون بالرش. وليس الامر كذلك بل انهم يعمدون بالتغطيس كما هو الجاري في العماد المألوف (ستأتي البقيّة)

تسريح الابصار

في ما يحتوي لبنان من الآثار

للاب هنري لامنس اليسوعيّ (تابع لما سبق)

٢٨ ارز لبنان

لا يسعنا في وصف آثار لبنان ان نضرب صفحاً عن شجر اختصّ به هذا الجبل

دون غيرهِ نزيد شجر الارز الذي نُسب الى لبنان نسبةً غير منفصمة . لكننا لا نبسط الكلام فيهِ الّا لنورد ما يفيدنا عنهُ علماً تاريخيًّا وأثريًّا وندع لارباب الطبيعة ما هو أحقُّ برصفهم

انهُ غنيٌّ عن البيان انَّ الارز المذكور في الاسفار المقدَّسة هو هو ارزُ لبنان كما تشهد تسميته العبرانيَّة والعربيَّة التي لم تختلف منذ القدم حتَّى الآن . وكذلك يوافق ارزنا الذي نعرفهُ ما جاء فيهِ من الاوصاف في الكُتُب المنزلة . مثل بُسوقهِ (اشعيا ٢ : ١٣ حزقيال ٣١ : ٣ و٨ عاموس ٢ : ٩) وامتداد اغصانهِ الفنّاء الوارفة الظلّ (حز ١٧ : ٢٣) ورائحتهِ الراتينجيَّة التي تعطّر الارجاء (نشيد ٤ : ١١ هوشع ١٤ : ٧) وحسنهِ الذي يجعلهُ فخرًا للبنان (اشعيا ٣٥ : ٢ و ٦٠ : ١٣) ورفرتهِ في هذا الجبل (مز ٩٢ : ١٣ و ١٠٤ : ١٦ اشعيا ١٤ : ٨) قال حزقيال (٣١ : ٣ — ١٠) ملخصاً كل هذه خواصّ الارز وهو يشبّه بهِ ملك اشور : « هوذا اشور ارزة بلبنان بهيجة الافنان غياء الظلّ شامخة القوام وقد كانت ناصيتُها بارزةً بين اغصان ملتفَّة . المياه عظَّمتها والغمر رفعها . انهارها جرت من حول مَغرسها ومجاريها ارسلتها الى جميع اشجار الصحراء فلذلك عند نشأتها ارتفع قوامُها فوق جميع اشجار الصحراء وامتدَّت فروعها من كثرة المياه . في اغصانها عشَّشت جميع طيور السماء وتحت فروعها ولدت جميع وحوش الصحراء . وفي ظلّها سكنت جميع الامم الكثيرة وصارت بهيجةً في عظمتها وفي طول عَذَباتها لأنَّ اصلها كان على مياهٍ غزيرة . . . فكلُّ شجرٍ في جنَّة الله لم يعادلها في بهجتهِ فاني صنعتها بهيجةً بكثرة عَذَباتها فغارت منها جميع اشجار عدن التي في جنَّة الله » فلهِ من وصف يطابق الواقع لاسيَّما في عهد النبيّ اذ كانت كل قمم لبنان مكلَّلة بغابات الارز . وفي قول حزقيال احسن تفنيد لآراء احد المحدثين من الفرنج واسمهُ اوجين دي لاسال (١ زعم انَّ الارز غُرس في لبنان على عهد صلاح الدين يوسف الايوبي

هذا وللأرز خشب صلب صقيل اصفر فاقع ذو خطوط حمراء عَطِر الرائحة لا يعمل فيهِ الزمان ولا تقربهُ الارضة والسوس ولذلك اعتبرهُ قدماء البنّائين (راجع سفر

١) راجع كتابهُ Pérégrinations ou Voyages, *Paris* 1840. I, 132

الملوك الثاني ٧:٧ و ١ اخبار ١٧:٦ واش ٩:١٠ ارميا ٢٢:١٤) واستعمالهُ منذ عهد عهيد في الابنية كان اعظم الاسباب التي عمات على خرابهِ

وقد ذكر الطبيعيّ بلينيوس (١ ارز سوريَّة كخشب لا يصيبهُ الفساد وروى انَّ سقف هيكل ديانة في افسس الذي التهمتهُ النيران بعد تشييدهِ بنحو ٤٠٠ سنة كان من هذا الخشب . وكذلك كان قدماء الشعراء يشبهون الاعمال المخلَّدة بالارز (٢ . ومما يشهد لهذا الشجر بالبقاء انَّ لايَرْد (Layard) وجد بين عاديَّات اشور تريرهبال في نينوى اخشابًا من الارز صبرت على آفات الدهر نيفًا و٢٧٠٠ سنة فاخذها واعاد صقلها فكانت كأنها قُطعت حديثًا . وفي المتحف البريطاني قطع من هذه الاخشاب القديمة حسنة المنظر صفراء اللون بارزة العروق . وقد أُلقي شيء منها في النار فنفاح عرفها الذي اطرأهُ القدماء (٣

اما استعمال الارز في البناء فكان متنوّعًا يتَّخذهُ المهندسون لعتبات الابواب وعوارضها وسقوف البيوت (راجع سفر النشيد ١:١٤ و ٨:٩ وارميا ٢٢:١٤ وصفنيا ٢:١٤) بل ربَّما التجأوا الى الارز لتصفيح جدران القصور والهياكل بالواحهِ . وكذا فعل سليمان في هيكل اورشليم قال في سفر الملوك الثالث (٦:١٥—١٧) انهُ « بنى على جدران البيت من داخل الواح أرز . من ارض البيت الى جوانب السقف » وقد احبَّ القدماء ان يصفّحوا الجدران بهذه الالواح لأنَّ حجارة فلسطين وسوريَّة هي في الغالب كلسيَّة نخرة لا تروق العين كالرخام والصوَّان والحجر المانع فالتصلافي هذا الحال كانوا يصفحون الجدران بصفائح من ذهب او فضَّة او خشب ثمين وكانوا يفضلون الارز لبقائهِ . وكان داود قبل ابنهِ سليمان طلب من حيرام ملك صور ان يُرسل لهُ كميَّة من اخشاب الارز ليبتني بها بلاطهُ في اورشليم . فلمَّا صار الامر الى ابنهِ فاراد ان يشيّد للرب هيكلًا يُعدّ من عجائب المعمور فضَّل الارز على سواهُ لتتميم هذا المشروع الخطير

---

١) راجع تاريخهُ الطبيعي ك ١٣ : ١١ و١٦ و ٧٦ و ٧٩

٢) راجع Horace, *Epist. ad Pisones* 32 و Perse *Satires* 1, 41

٣) راجع الشاعر ڤرجيل Eneid. VII,13 والتاريخ الطبيعي لبلينوس ك ١٣ ف ١ وتأليف لايَرْد Niniveh and Babylon, 367

وكذلك صنعوا داخل الهيكل الثاني في اورشليم بخشب الارز (١ وهكذا ايضاً جاءوا سقف الهيكل الذي جدَّده هيرودس (٢

اما الابنية الاولى المسيحية التي شيَّدتها الملكة هيلانة مثل قبَّة القبر المقدَّس وسقف كنيسة بيت لحم فقد اتخذوا لها ايضاً خشب الارز الى ان جدَّدها الصليبيون. هذا فضلاً عن انهم كانوا يستعملون خشب الارز تماثيل واصناماً كما قال اشعيا (٤٠: ١٩) وقد قال مثلهُ ايضاً كل من بوسانياس وبلين (٣

ثم ان خشب الارز كان معتبراً ومستعملاً في خارج سورية وفلسطين لان سنحاريب ملك اشور يفتخر بانهُ صعد جبال لبنان وقطع منها شجر الارز (٤ وفي الكتابات المسمارية ايضاً يفتخر ملوك بابل واشور بمثل هذه المأثرة لانهم كانوا في الغالب يتقاضون جزيةً من خشب الارز. وكثيراً ما يرد في النص الاشوري ذكر الارز موصوفاً بطيب العرف ومقولاً عنهُ ان ملوك نينوى وبابل كانوا يتخذونهُ جسوراً او رواقد في هياكلهم وقصورهم (٥ وكانوا يكثرون جدًّا من استعمال الارز حتى ان النبي اشعيا (١٤: ٨) في معرض كلامهِ على سقوط بابل يصور الارز فرحاً مجبوراً بخرابها. وكذلك كانت تصور ملوك فارس في عاصمتهم من خشب الارز (٦

وقد عرف المصريون الارز وخواصَّهُ العجيبة وكان الفينيقيُّون ينقلونهُ الى سواحلهم بحراً (٧. فاتَّخذهُ الفراعنة لابنيتهم الفخيمة كالقصور الملكيَّة والهياكل الدينيَّة وقد اقتدى بمثلهم الملوك السلوقيُّون في سوريَّة وقد اصطنعوا منهُ ايضاً اثاث بيوتهم لعدم فسادهِ. وذاك ما حدا الى ان يحثوا من نشارتهِ على موتاهم في تحنيطهم ويطلوا براتينجهِ خارج التوابيت كما يشاهد ذلك في مدافن المصريين

*

فيؤخذ من كلّ ما سبق انَّ تجارة الارز اللبناني كانت متَّسعة النطاق. على انَّنا لم

---

١) ١ عزرا ٣: ٧ ٢) يوسيفوس في حرب اليهودية ٥: ٥، ٢

٣) التاريخ الطبيعي ١٣: ١١ . ٤) ملوك رابع ١٩: ٢٣ واشعيا ٣٧: ٢٤

٥) Schrader مجموع كتابات اشورية وبابلية ك ١. ص ٦٨، ١٠٨، ١٤٠ الخ

٦) راجع المؤرخ اللاتيني كورتيوس روفوس ٥، ٢٢

٧) راجع تاريخ الصناعة في القدم لبيرو (Perrot) الجزء الاوَّل ص ٥٦٧

نذكر ألا قسماً صغيراً من الابنية التي كانت تجهّز بهذا الخشب. فانّ الادوات الحربيّة والمجانيق كانت في الغالب تُصطنع من الارز. ولا شكّ انّ السدّ الذي اقامهُ الاسكندر بين الشاطئ والجزيرة التي كانت مبنيّة عليها مدينة صور دخل فيهِ شيء كثير من خشب الارز

وقد روى المؤرخ ديودورس (ك ١٩ ف ٥٨) انّ انطيغون الملك حاول حصار المدينة المذكورة في سنة ٣١٥ ق م. فاراد ان يجهّز لهُ اسطولاً قويًّا فأتى بثمانية آلاف عامل عهد اليهم ان يقطعوا من ارز لبنان ما كان كافياً لتجهيز ٥٠٠ سفينة حربيّة. فنُقل الخشب المقطوع على ظهر الف دابّة الى مصانع صيداء وجبيل وطراباس حيث أُنجز العمل. قال الراوي « وكان الخشب المذكور من الارز المرتفع القوام الباهر العظمة » فترى من هذا المثل الوحيد كم عاثت الحروب بارز لبنان. ولكن كم عبث بهِ من الحطّابين غير الثمانية آلاف الذين ذكرناهم. ولو اردنا لاوردنا امثلةً عديدة تؤيد قولنا. ويؤخذ من رواية ديودورس ان كلّ قمم لبنان كانت تزدهي باشجار الارز من الشمال الى الجنوب يُستدلُّ على ذلك من ذكر المدن الساحليّة التي نُقل اليها الارز لعمارة اسطول انطيغون. واذا استغرب القارئ وجود الارز جنوبيّ لبنان فليذكر خبر حيرام ملك صور المشار اليهِ سابقاً

وممّا يؤسف لهُ ان الحكومة المحليّة لم تسنّ السُّنن لقطع هذه الغابات بنظام. وعلى رأينا انّ الرومان اوّل من فكّر في هذا الامر الخطير كما يظهر ذلك من كتابات لأدريان الامبراطور اوردناها مراراً مفادها انّ الحكومة لا تسمح بقطع اربعة اصناف من الاشجار(١ من جملتها الارز. ومع ما دهم الارز من العيث والفساد نرى المؤرخين الرومانيين يذكرون غاباتهِ الكثيفة من جملتهم تاقيتس المؤرخ (ك ٥ ف ٦). وروى اوسابيوس القيصري (ك ١٠) انّ سقوف البيع كانت تتخذ عادةً من خشب الارز في القرن الرابع

على انّ السُّنن الرومانيّة لم تحفظ للبنان فخر غاباتهِ الّا زمناً قليلاً فانّ بروكوب المؤرخ (٢ يخبر عن يوستنيان الملك انهُ بحث البحث الطويل قبل ان يجد الارز الضروري

١) قد وردت هذه الكتابة في المشرق (١ : ٧٢٦) على خلاف هذه الرواية . والصواب ما ندوّنهُ هنا

٢) راجع كتابهُ De Ædif. Justin. (ك ٥ ف ٦)

لتشييد كنيسة مريم الملكيَّة في اورشليم. وبعد التنقيب والتفتيش عثر البنَّاؤون على ما كانوا يطلبون اي سواري باسقة الطول كافية لعوارض سقف البيعة

واذا تتبَّعنا تاريخ الارز من ذاك الحين وجدنا يد التلف تسطو على غاباته حتَّى لم تكد تترك منها غير اثر بعد عين. فقد ذكر تاوفان المؤرخ في تاريخ سنة ٦١٤٠ للعالم ان معاوية اول خلفاء بني امية ابتنى ١٧٠٠ سفينة شراعيَّة واتَّخذ موادها من جبل لبنان ولم تمضِ سنوات قليلة بعد ذلك حتى جهز ايضاً اسطولاً ثانياً اكثر عدداً واشدّ هولاً من الاوَّل وقد حذا حذوه غير واحدٍ من الخلفاء في مسألة الانشاءات البحريَّة وكانوا يجعلون اخصّ دور الصناعة وهي التي تسمَّى اليوم بمحلات الورشات او الترسانات في مدينة طرابلس نظراً لقربها من غابات الارز. ومما عاون ايضاً على تلف الارز وكان من جملة اسباب قطعهِ صناعة استخراج الحديد ومعالجتهُ التي كانت اثناء القرون المتوسطة شائعة في كثير من نواحي لبنان كما يؤخذ من تاريخ ابن بطوطة والادريسي والقلقشندي. ثم ان الجهات التي أقيمت فيها مسابك الحديد وكانت في مبادئ القرن التاسع عشر زاهيةً بالنابات والاحراج الملتفة أصبحنا ولا نرى فيها اليوم نبتةً خضراء. فبهذه الطريقة والحالة هذه نستطيع ان نعلِّل سرعة فناء النابات في جبل لبنان

اما الآن فلم يزل شجر الارز موجوداً في ثلاثة اماكن أخرى من لبنان لانك تجد منهُ اولاً في شمالي لبنان بين قريتي الحدث ونيحا غابة يبلغ طولها نحواً من ساعة ونصف. نعم ان اكثر اشجارها فتيَّة وليست في كل اماكن الغاب بملتفة ولكن اذا اتخذ ما يلزم من الاحتياطات لصيانتها لا تلبث ان تصير بتمادي الأيام حرجاً من الطف الاحراج وآنقها

وثانياً في اعالي قرية سير ببلاد الضنية في مبادئ وادي النجاص فهناك كثير من شجر الارز على ارتفاع ١٩٠٠ متر عن مساواة البحر. وتجد الارز ايضاً بين سير ونبع المسكَّر ثم في الغابة الواقعة خلف وادي جهنَّم (١ والقوم في تلك الناحية يسمُّونهُ تنوب (٢

ثالثاً في لبنان لفيف ثالث من شجر الارز لا يعرفهُ الَّا القليلون نابت في الجبال

١) وقد ذكر ارز الضنية الرحالة سيترن ١. ص ١٧٦

٢) راجع المجلة الفلسطينية الانكليزية سنة ١٨٩٣. ص ٢٢٠

المشرفة على قرية الباروك على مسافة ساعة ونصف من الجنوب الشرقي وهو هناك بهيئة غابة غياء تمتدّ على مسافة ساعة طولًا غير ان شجر الارز في المحل المذكور يوجد ألفافًا ينفصل بعضها عن بعض في الغالب بمسافات خالية او مشغولة باشجار أخرى من جملتها السنديان وهو من نوع السنديان الذي ينبت في شمالي اوربة واهل البلاد يسمّونهُ اللكّ ويسمون الارز الأبهل . وارز الباروك بوجه الاجمال فتيّ ولكن قد تُصادف فيه بعض اشجار عتيقة غير انها اقل سموقًا وارتفاعًا من الارز الموجود بناحية بشراي لان ثقل الثلوج في مثل هذه النواحي العالية كثيرًا ما يكسر قمم الشجر كما ان شدّة الريح تحنيها حتى تجعلها منبسطة كالظلة على هوى الريح . فضلًا عن ان الجذوع تتفرّع عادةً الى فروع فتصير بها عظيمة وكبيرة . امّا متى كانت الشجر مجتمعةً لفًّا واحدًا فترى جذوعها سامقةً مستطيلة وخاليةً من الفروع غير انهـا تكون اقل ثخانة نظرًا لشدة قربها بعضها من بعض . على ان ارز البـارورك بما فيهِ من الشجر الكبير والصغير والفتيّ الثابت على اصول القديم يمثّل للعين غابةً حقيقيةً اكثر من ارز بشراي

ولكن حياة هذه الغابة الجميلة تراها لسوء الحظّ مهددةً كل ساعة بالفناء والدمار لانها لما كانت ملكًا لقرية الباروك كانت بلديتها تأذن بالقطع منها لقاء بعض دويهات تنتفع بها فمن ثمّ نستلفت الى هذا الامر انظار الحكومة اللبنانية

اما اشهر لفيف من شجر الارز فغابة بالقرب من قصبـة بشراي وهو على علو ١٩٢٥ مترًا فوق مساواة البحر في سفح الجبـل المعروف بظهر القضيب . والتربة الثابت فيها الشجر المذكور كلسيّة ولكن الورق الذي يتساقط منهُ ادى شيئًا فشيئًا الى تكوين قشرة من التراب الاسود . وفي قلب هذه الغابة كنيسة صغيرة للموارنة يقيمون فيها الاحتفالات كل سنة يوم عيد التجلي

واعظم شجر الارز ثابت في جوار الكنيسة المذكورة ومنهُ ارزة يبلغ محيط جذعها اربعة عشر مترًا و٥٦ سنتيمترًا ثم ارزة أخرى تقاربها في هذه الضخامة . والارزتان المذكورتان هما اقدم شجر الغاب وقدّر بعضهم ان عمرهما لا يقل عن ثلاثة آلاف سنة (١ وقال

---

١) راجع المجلة الفلسطينية الالمانية (ZDPV) مجلد ١٠ ص ٩١ وكتاب ايبرس وغوته مجلد ٢ ص ١٤ المدون Palestina im Wort und Bild

بذلك الجيولوجي الشهير الدكتور فراس الذي بنى حسابه على العقد المختلفة الموجودة في الشجرتين

واكبر ارتفاع تبلغهُ هذه الشجر لا يتجاوز ٣٥ مترًا وفي جملتها شجرات يتراوح ارتفاعها بين اربعة عشر واثنين وعشرين مترًا والباقي يقل ارتفاعهُ عن اربعة عشر مترًا

واما جملة شجر الغابة فهو نحو ٣٩٧ شجرة يدخل فيها الشجر الصغير الذي لا يتجاوز ارتفاعه سبعة امتار وهو مما وقف الشجر الكبير في سبيل نموه مانعاً عنهُ الهواء اللازم لذلك. وفي الغابة ايضاً شجرات اشتدَّ قربها الى بعضها كثيرًا حتى تلازَّت جذوعها واصبحت كانها جذع واحد

ومن يقابل بين اخبار السيَّاح والجوَّالة الذين زاروا هذه الغابة يرى ان ارز بشراي قد زاد عددًا في ايامنا. لان الارز المذكور كان في القرنين السادس عشر والسابع عشر قد تناقص بل اوشك ان يتلف لولا عناية بطاركة الموارنة الذين تهدَّدوا بالحرم كل من يمدّ اليهِ يدًا عادية

واوَّل من تكلم عنهُ هو بيلون (١ الافرنسي وعدَّ منهُ ثمانية وعشرين ارزة قديمة. ثم السائح الالماني فوريرثون هايمندورف (٢ سنة ١٥٦٦ وعدَّ منهُ خمسًا وعشرين ارزةً. ثم العشَّاب راولف (٣ الذي زارهُ سنة ١٥٧٥ ولم يعدَّ منهُ غير اربع وعشرين ارزة. ومن بعد هذا التاريخ كثر الذين اخبروا عن الارز من جملتهم الاب ايرونيموس دنديني اليسوعي قاصد الكرسي الرسولي الى الموارنة فانهُ زاره سنة ١٥٩٩ وعدَّ منهُ ثلاثًا وعشرين ارزة. ومنهم دارفيو (٤ الذي زاره ١٦٦٠ ومنهم روجيه وغيرهُ ولم يجدوا اذ ذاك غير اثنتين وعشرين شجرة. ومن بعد هؤلاء زاره المؤرخ دي لارك سنة ١٦٨٩ فوجد فيهِ عشرين شجرة والانكليزي موندريل سنة ١٦٩٦ ثم پوكوك وعدَّ الاوَّل ستَّ عشرة والثاني خمس عشرة. غير ان الشجرات الفتية قويت لحسن البخت في اثناء هذه المدَّة على ان تنمو تدريجًا وتعوَّض عن الارزات القديمة

وفي تضاعيف القرن الثامن عشر تجدَّدت الغابة شيئًا بعد شيء وترتقي اعمار

---

١) Belon
٢) Fürer von Haimendorff
٣) Rauwolff
٤) D'Arvieux

الشجرات الفتيَّة الى هذا التاريخ ومن النظر الى ما فيها من العقد يُقدَّر ان أعمارها لا تزيد على قرنين

وفي ٢١ تموز سنة ١٨٠٥ يخبر سيتزن عن ثلاثمائة ارزة بنوع التقدير اذ يظهر انهُ لم يعدَّهـا واحدةً فواحدةً . وفي سنة ١٨١٠ يخبر بورخارد عن ثلاثمائة ارزة صغـيرة وخمسين متوسطة وخمس وعشرين ضخمة وجملة ذلك ٣٧٥ ارزةً . وقد ذكر هذا العدد نفسـه تقريبًا الجيولوجي فراس الذي زار الغابة سنة ١٨٧٤ مما يدلّ على ان عـدد الارزات قد بقي في زماننا على حالهِ

ومع كل ذلك لا يمتنع تكثيرها وفرارًا من تكرار ما سبق لنا ايرادهُ في هـذا الشان نحيل القارئ على المشرق (١ : ٧٢٧ و ٣ : ٩٧٦) حيث تكلَّمنا عن هذه المادَّة وأتينا المقابلة بين لبنان وجبال الأَلب

وقد مرَّ القول انَّ الارز يوجد ألفافًا متفرّقة ما بين كبيرة وصغيرة في أماكن مختلفة من جبل لبنان . وهذا يثبت انهُ يقوى على النجاح والنموّ فيهِ . بقي ان نقول ان الارز يوجد ايضًا في تعنايل التابعة البقاع وذلك في ارض الآباء اليسوعيين الذين امتحنوا زراعتهُ عندهم فافلحوا . اما في خارج لبنان فيوجد الارز بكثرة في جبال قرمانية وجبال جزائر الغرب . وكل هذا من شأنهِ ان ينشط مساعي الذين يهتمُّون بحفظ الاشجار الجميلة التي كانت زينة وحلية في جبين لبنان منذ الدهر القديم (١ (ستأتي البقيَّة)

ما ورثهُ اهلُ العراق

عن الاشوريين والكلدانيين العتاق

بقلم حضرة الدكتور نابليون ماريني

ووث اهل العراق الحاليُّون عن سكَّانهِ القدماء آدابًا وحرفًا جمـةً مما يدل على ان التواتر والتقليد سُنَّة قديمة في الشرق يحافظون عليها كل المحافظة وقد استقصيتُ اثرها واستجليتُ امرها بمطالعة الكتب التاريخيَّة العزيزة حتى انهُ لم يبقَ لي ريب فيها . ثم

١) اما طريقة تكثيرها فراجع في شأنها ZDPV, X, 93 ;

حداني حادٍ ان افيد القرّاء بذلك لتحريضهم على ان يُطرفونا بما هو من بابهِ عن بلادهم إذ ارى انهُ من اللازم اللازب على كل انسان ان يتفرّغ للمطالعة وان ينقّب عن سكّان بلاده الاصليين وعن مصدر معارفهم ونشوء صناعهم واختلاف ازيائهم وما شابه ذلك. ثم يرجع الى التفريق بين اولئك وبين احوال سكّانهِ الحاليين كي يقدّر سمو مداركهم حق قدرها ويعطي لكل قومٍ فضلهم. فهذا اذاً جُلّ مقصدي مما انطوى عليهِ هذا البحث الجليل. وتسهيلاً للأخذ قستهُ الى فصولٍ متعدّدة راجياً من المطالع المتضلع بهذا الفنّ ان يسدّ الخلل. ويغضّ الطرف عن الزلل وعلى الله المُتّكل

وقبل الخوض في الموضوع اذكر القوم بامرٍ هو خلاصة ابحاثي وهو ان سلالة البابليين قد انقرضت وبقي منها شُواية محصورة في عشيرة يبلغ عدد افرادها ألفين تعرف بالصابئة وهي الامة التي يبحث عن معتقدها واصلها الاب انستاس الكرملي في المشرق المفيد. وان سلالة الاشوريين ايضاً قد انمحت وبقي منها شُواية تعرف باسم الاكراد ويسميهم المؤرخون بالكوشيين (Cosséens) وهم يسكنون الآن الجبال الواقعة بين حدود العراق وبين العجم على مسافة ١٥ يوماً من بغداد. ومما يشهد بذلك ضخامة اجسامهم وقوّة عضلهم الشهيرة المقرونة باللباقة وغلاظة طباعهم مع ذكاء فطري ومزاولتهم صنائع بديعة صعبة المنال هي بقايا مما اخذوه عن اجدادهم. والخلاصة انهم يذكّروننا باقوال ارميا النبي اذ يصف العسكر الاشوري: «... ها انهُ يصعد كغمام ومجلاته كالزوبعة وخيله اخفّ من العُقبان...» الفصل ٤: ١٣ ثم يقول: «هأنذا اجلب عليكم امةً من بعيد امة قويّة امة قديمة..... كلهم جبابرة.» الفصل الخامس: ١٥ و١٦

ولقد طرق مسامعي غير مرّة ادعاءات فارغة اوهن من نسيج العنكبوت صادرة عن بعض المنتمين الى الطائفة الكلدانية مغزاها ان نسلهم يرتقي الى البابليين القدماء. وانّهم هم الأحقّون بذلك الاصل من سواهم

اقول حسبهم تفنيداً مطالعة تاريخ الكنيسة الكاثوليكية فانهُ يُطلعهم كفاية على اسباب تلقيبهم بالكلدانيين ان الله مع الصادقين

البناء

اذا زار اليوم احد الزوار ارجاء العراق شاهد المنازل والمخازن والقصور الشاهقة والقلاع الخ مبنية كلها بالاجرّ وهو الطابق بلسان العراقيين. وهذا النوع من البناء هو مما

اخذوهُ عن الاشوريين والبابليين ولم يزيدوا عليهِ ادنى تغيير بالذكر جدير سوى النشر والنحت اي ان القدماء كانوا يتخذون الاجرّة بصحتها وعلى حالها كما كانوا يستخرجونها من الأتون. اما الآن فاهل العراق يصنعون الاجرة اصغر حجماً من الاجرّة القديمة وينشرونها نصفين ثم ينحتونها نحتاً تاماً حسب الاصول اللائقة بموقعها من البناء.

هذا ولا انكر على القدماء ان قد فاتتهم هذه المعرفة فان هذا الوهم مني بعيد بل يجوز لي الرجم انهم تركوا الاجرّة على حالتها تعمُّداً لكي تقاوم حوادث الزمان مدة مديدة وكأني بهم حسبوا ان تقسيم الجسم يؤدي بهِ سريعاً الى البوار والتلف. ولذا ترى باقيةً الى يومنا هذا آثاراً عديدة ضاحكة ببقاء آجرها الصحيح الحجم من عوامل الطبيعة وكوارث الحدثان

اما البنايات الحديثة فان صاحبها يُضطَّر الى اصلاحها كل عشرين سنة او ثلاثين على الاكثر اذا لم يُرد ان يداهمها الخراب. ويعشش في زواياها البوم والغُراب. اما القدماء فكانوا يرممون عماراتهم مرة واحدة كل مائتي سنة ورُبَّما كل خمسمائة حول وكل الف حجّة. واليك بهذا الخصوص ما قرأهُ علماء العاديات على احد الآثار وفيهِ ذكر إصلاح لبناء جرى في زمان الملك نبونيد (خليفة نبوخذ نصر): «ان هرم هيكل النور العظيم الذي باشر باقامتهِ ولم يُتمهِ لِكْ باجس (Lik Bagus) الملك العريق في القدم..... ان هذا الهرم قد تداعى لتقادم عهدهِ..... فأمرتُ باعادة بنائهِ بالاجرّ والقير كما كان قبلاً» ويفيدنا علماء العاديات عن هذا الهرم وهيكلهِ انهُ كان قد بُني من مدة الفي سنة قبل ترميمهِ على يد الملك نبونيد. فتأمل

ولنرجع الآن الى ما كنا فيهِ فنقول ان البناء بالآجرّ لهو من اعرف الاشياء قدماً. يرتقي قدمهُ الى الوفٍ من السنين وتشهد لنا بذلك التوراة اذ تقول: «وقال بعضهم لبعضٍ تعالوا نصنع لبناً ونَشوِهِ شيًّا فكان لهم اللَّبِن بَدَل الحجارة والحمَر كان بدل الطين....» التكوين ١١: ٣

وكان اولئك القدماء يتخذون الطين للبناء على طريقتين. اما مطبوخاً واما غير مطبوخ ففي الحالة الاولى يُسمّى آجرًا وفي الثانية لبناً. فكانوا يأخذون كمية من التراب ويعجنونها بالماء حتى يَغدُوَ طيناً. فيفرغونهُ في قوالب مكعبة مستقيمة الزوايا ويعرضونهُ للشمس وللهواء مدة قليلة ثم يطبخونهُ في اتون نار حامية. وعلى هذه الطريقة يُستحضر

اللبن الّا انهُ لا يُحرق بالنار بل يُشمَّس مدة طويلة وقد يُضاف اليهِ تبن ليزداد صلابةً ومناعةً

وكانت هيئة الآجرّة مكعبة مستقيمة الزوايا طولها واحد وثلاثون سنتيمترًا وثخنها عشرة سنتيمترات وهكذا كان حجم اللبنة . امّا اليوم فيستحضر العراقيون الآجرّ واللبن على هذا النمط عينه الّا ان شكلهُ مربع وحجمهُ يبلغ نصف حجم الآجرّة القديمة وما ينيف على ذلك . وظلَّ الاشوريون والبابليون على ما كان سلفاؤهم من إقامة ابنيتهم كلها بالآجرّ . اما استحضارهُ والعمل بهِ فكان من الواجبات المفروضة على الاسرى المستعبدين لهم وعاك تفصيل كيفية البناء في ذلك الزمان

يبتدئ اولًا الفعلة بإحكام الاساس إحكامًا متقنًا وذلك يقوم على حفر الارض على طول البناء حفرًا عميقًا يبلغ ثلاث قامات لان قيعان هذه الاوجاء رخوة هشة لا تحمل فوقها بناءً شاهقًا ثقيلًا . ثم تُدكّ الحفرة دكًّا بالآلات حتى تصلب الحفرة . وبعدهُ يرمون فيها طبقةً من الحَمَر (التراب المخمور) مع قليل من الماء . ثم يعيدون الدكّ الاوّل وهو الرصُّ بالمدقات وعلى هذا الوجه يجعلون طبقات عديدة بعضها فوق بعض الى ان يدفنوا من عمق الحفرة على هذا المنوال ما يناهز علوّ قامةٍ او ما ينيف عنها وحينئذٍ يأخذون بالبناء . وذلك بان يصفُّوا الاجرّ على حجمه الكامل الواحدة جنب الثانية فيكمل الساف الاوّل (المدماك) ثم انهم يرجعون الى راس الساف ويصفُّون من الآجرّ سافًا ثانيًا وهكذا يجري العمل الى ان يقوم الحائط بعلو عشرين ذراعًا او ثلاثين . وكانوا يجمعون الآجرّ بعضهُ الى بعض بالنورة وهي الكلس الممزوج بالرماد او بالتراب الاحمر بعد تحويلهِ طينًا او بالكلس وحدهُ او اخيرًا بالقير المذوَّب . وعلى هذا الوجه ترى آثار قصر نمرود وقصر بابل مبنيين بالكلس وحدهُ . واما هيكل مدينة أور (وطن ابرهيم الخليل) فمبني بالقير وحده ومن ذلك أُطلق عليهِ لقب التلّ المكيَّر (يعني المقيَّر لأن عرب هذه النواحي يلفظون القاف تارةً جيمًا صريحة وطورًا چيمًا مثلثة فارسيَّة وآونةً كافًا مثلثة فارسية) ولا يعرف الآن الّا بهذه التسمية وهو لا يزال ماثلًا وموقعهُ بين البصرة والعمارة يقصده كل سنة عدد من الرواد الاوربيين لاستكشاف مخافيه واستنزاف مخابيه . ومن ذلك ايضًا حيطان مدينة بابل فانها كلها مبنية بالآجرّ والقير . والبعض منها واقف حتى اليوم تشهد بطول باع بانيها . اما هيئة المنزل من داخل

وهندستُهُ في ذلك الوقت فسيأتي الكلام عليها في محلّها

وربَّما انكر علينا البعض كل ما اتينا بذكرهِ عن البناء في زمان البابليين عازيًا كلامنا الى الاختلاق والتلفيق لا غير. فاقول وقولي مستند الى هيرودوتس المؤرخ الشهير فانهُ لمَّا زار بابل في القرن الخامس قبل المسيح اتاح لهُ الحظ ان يشاهد عيانًا بنيان سور المدينة ومنازلها فقال: «... كانوا يحفرون الارض و يستخرجون منها التراب ويلبنونهُ واذا كمل عدده طبخوه بنار اتون ثم يبنونهُ بالقير المذوَّب و بين كل ثلاثين سافًا من الآجرّ يفرشون طبقة من سعيف القصب وبعد انتهائهم من اقامة السور الشاهق يباشرون ببناء سائر اسوار المدينة على ذلك المنوال»

والشاهد الثاني هو انَّ في متحف جمعيَّة الهند الانكليزيَّة وفي متحف العاديَّات البريطاني كتابات مسماريَّة عديدة منها ما مؤداهُ: انا نبوخذنصَّر قد أمرتُ ببناء هيكل الاله نَبُو في بابل بالآجرّ والقير حسب اصول الفن اكرامًا لهُ لانهُ الملك الاعظم الذي يمنح قضيب العدل ويُدبر اصناف البشر»

والكتابة الثانية تقول: «انا نبوخذنصَّر قد بنيتُ في بابل هيكل قاضي العالم بالآجرّ والقير اكرامًا للاله سَمس (اي الشمس) الذي يلهم قلبي حاسيَّة العدل.»

وبقي هناك شواهد أخرى دامغة ضربنا عنها صفحًا خوف الملل. وعدد عديد من الكتابات المسماريَّة على هذا المثال كلها تنطق بما أمر باصلاحهِ وترميمهِ الملك نبوخذنصَّر وغيرهُ من هياكل وقصور واسوار وأسس الخ

اما طريقة البناء الجارية في هذه الايام فلا تختلف البتة عن الطريقة القديمة الَّا في امور قليلة لا طائل تحتها وقد أشرنا اليها من نشر الآجرّ الى نصفين ونحتهِ ليس الَّا. والموادّ التي تدخل في البناء من نورة وهي الكلس المخلوط بالرماد والكلس وحدهُ والتراب الاحمر بقيت هي هي. ولم يبطل الَّا استعمال القير فقط وذلك لكُلفهِ وصعوبة ذوبانهِ ولكراهة رائحتهِ ولقلَّة وجود من يشتغل بهِ. غير ان الحمَّامات والأحواض وما ضاهاها لا تُبنى الَّا بالقير والآن لا يوجد في كل العراق ووَسعهِ الَّا بُليدة واحدة تدعى هِيت لا تستعمل في بنائها كلهِ الَّا القير لوجود ينابيع قيريَّة عديدة في جوارها ولفقر أهاليها وقناعتهم بما هم عليهِ. وسوف يأتي الكلام عن هذه الينابيع في بحثٍ غير هذا ان شاء الله

ورُبَّ سائلٍ يقترح علينا هذا الاقتراح وهو: ألم يستعمل القدماء ايضًا الحجر الاصم؟ أجيب بلى ان الاشوريين والبابليين استعملوهُ في امور منها حفر الصُّرَّ الناشئة وتبليط القصور الملكيَّة والرَّدَهات العموميَّة وإقامة الأُسس المتينة وما شاكلها. واثباتًا لذلك نستشهد بكلام المؤرخين ديودورس وهيرودوتس اذ يقولان: انك ترى بين مُنشآت نهر الفرات المبنيَّة بالآجرّ جسر المدينة وقد وصل جانبها الواحد بالثاني وهو معقود بحجارة جسيمة جدًا مرتبطة الواحدة بالاخرى بقضبان حديديَّة وقد صُبَّ عليها الرصاص صبًّا » (١

ولم تزل بقايا هذا الجسر العظيم في قيد الوجود تصارع عوامل الطبيعة وهي مدفونة في مياه دجلة على مسافة اربع ساعات من الموصل وتعرف الآن « بالعَوَّاية » اي العوَّامة وسبب هذه التسمية ان المياه بمرورها خلال تلك الاحجار الجسيمة المتفارقة المتباعدة بعضها عن بعض تُولد سرعة حركتها دويًّا مهولًا يشبه عُواء الكلب ويُسمع على بُعد ساعتين. وهذا الدويّ يبلغ أقواهُ في فصل الصيف لان النهر يأخذ بالنقصان حينئذٍ فتظهر رؤوس الاحجار من بين المياه وتعلو فوقها رويدًا رويدًا حتَّى يَبين اكثر حجمها. واما في الشتاء فلا يسمع ذلك الصوت لان غزارة المياه تغطيها بالكليَّة. وهكذا ذهب الاشوريون وخلَّفوا لاهل العراق آثار ذلك الجسر العظيم ولم يُورثوهم معرفة كيفيَّة بنائهِ وهندستهِ. اه

ركوب النهر

كان الاشوريُّون والبابليون اذا أرادوا ركوب النهر او عبوره يتخذون الوسائط الست الآتية: الجسر والسفينة والكلك او الطوف والقارب والقفة والقربة المنفوخة

١ً (الجسر) قبل البحث عنهُ نستأذن القارئ في وصف بابل ثمَّ نتطرَّق الى الكلام عن الاسباب التي دفعت البابليين الى مدّ جسرٍ على الفرات خفيف النقل سهل التركيب سريع الحلّ

ان حسن موقع بابل على الفرات في وسط برِّيَّة مستوية واسعة الارجاء مكشوفة الجهات أولد رغبةً في نفوس سكَّانها لجعلها مركزًا بديعًا وحصنًا منيعًا تدوم على دوام تعاقب الجديدين وتصدّ هجمات العدوّ لتردهُ على عقبيهِ. ويرجع سهم الطامع الى ليّهِ.

(١ Hérodote I, 186; Diodore II, VIII, 2.

خوطوها بخندق طافح بالماء الجاري وأقاموا بعيدًا عنهُ سورين عظيمين اسم الواحد امغورْبيل (Imgur bel) واسم الثاني نيفيت بيل (Nivitti bel) كما ورد ذكرهما في النصوص المسمارية. وقد باشر بناءهما الملك لسرحدون ولم تفرغ الايدي منهما الّا على عهد نبوخذ نصر. واستنادًا لهذا القول نستشهد بكلام هيرودوتس: «ان بابل واقعة في سهل عظيم فسيح وهي مربعة الشكل وكل جانب منها يبلغ طولهُ عشرين استارة (اي ٢٢٢٠٠ متر) ... وبالجملة فهي مدينة عظيمة لا نعهد لها نظيرًا ويكتنفها خندق عميق مفعم ماء ويليهِ سور سمكهُ خمسون ذواعًا ملكيةً وعلوه مائتا ذواع..... ولهذا السور على طول حافته ابراج دفاع في كل منها حجرة تقابل حجرة أخرى وجُعل في خلال الابراج مسافة كافية لان تدور بها المركبة التي يجرها اربعة افراس وكان للسور مائة باب من نحاس وكذلك عضائدها واعتابها وعلى مسافة ثمانية ايّام من بابل مدينة هيت...»

ونهر الفرات يمرّ في وسط المدينة ويقسمها الى شطرين وهو نهر عظيم عميق سريع الجري.... فجعل السور الاول والثاني على شبه دعامة في النهر وهناك يبتدي سور مبني من الطابق وعلى جانبيهِ من ناحيتي النهر وصيف..... وطرق المدينة مستقيمة ومتشعبة مؤدية الى النهر وتجاهها في السور القائم على النهر منافذ ذات ابواب نحاسيّة يُنزل منها الى النهر وهي في عدد الطرق

«ان الاسوار الخارجة اقيمت لوقاية المدينة والداخلة ليست باقل تحصينًا ومتانة منها لكنها اقل عرضًا وفي اواسط شطري المدينة ما يقضي بالعجب وهو قصران احدهما للملك وسوره كبير عظيم حصين جدًا والآخر في المحل المخصوص بهيكل المعبود بيل وابوابه نحاسيّة ولا يزال قائمًا حتى اليوم....» (١

وكان بين هذين السورين المار ذكرهما ارض واسعة الاطراف يسكنها كل الاسرى الذين يسوقهم كل سنة ملوك بابل من الشعوب المختلفة الالسن المتباينة النحل. ولم يكن يُباح لهؤلاء الاسرى الاختلاط مع الشعب البابلي ولا مساكنتهم ولا مجالستهم على اي وجه كان. فلهم مزارعهم ولهم مواشيهم ولهم اسواقهم ولهم مراعيهم وكل ما تميل اليهِ نفوسهم. وتقيدنا التوراة عن كثرتهم وعن اختلاف لغاتهم حتى كان بعضهم لا يفهم ما يقول الآخر

(١ Hérodote I, livre 1 1861

ولقد اوقفنا هيرودوتس على غاية الحائط الخارجي وهي الدفاع في وجه العدو وسها عن ذكر فائدة الحائط الداخلي . ولكن غيره من المؤرخين صرّح بان الغاية منهُ كانت صيانة الشعب البابلي من شجات تلك الشعوب الغريبة المأسورة الحالّة بين السورين اذا ما لعبت يوماً بافكارهم هواجس المعصية والهياج. ولتوطيد دعائم الامان من هذه الجهة اقام البابليون على الفرات جسرًا واحدًا من الخشب يربط قسمي بابل بعضها حتى اذا جنّ الليل رفع الحراس الواح الارز القائمة منهُ ارض الجسر فامتنع الجولان وانقطع السيران وهكذا يصبح العدو تائهاً في فلوات ادباره وغائصاً في لجج افكاره

وترى اليوم في المتحف البريطاني قطعة نحاس هي جزء من ابواب مدينة بابل القديمة وفيها صورة جسر طويل عريض يمرّ عليهِ العسكر البابلي لقطع النهر وهو مؤلف من قسمين غير ملتحمين بعضها قابلي الحلّ والتفريق في اي وقتٍ اراد صاحبه . القسم الاوّل منهُ : الدعائم وهي مؤلفة من سفن طوّافة مصفوفة بعضها جنب بعضٍ على خط مستقيم وعلى سطحها الواح الارز وهي القسم الثاني . واذا يممت اليوم ارجاء العراق رأيت فيهِ جسورًا عديدة كلها تطابق رسم الجسر البابلي المار ذكرهُ بجميع تفاصيلهِ الدقيقة كأن الذي حفره هو بذاتهِ اقام جسور العراق الحالية . وهاك تفصيل كيفية تشكيلها

يتركب الجسر كلهُ من الخشب ودعائمه هي سفن طوافة يبلغ عددها العشرين واكثر واقل حسب عرض النهر وضيقهِ وتُصف السفن كلها على خط مستقيم بعيدة الواحدة عن الثانية مقدار متر واحد ونصف متر تربطها بعضها السلاسل الحديدية لكي تصارع قوة جريان المياه . وليس حجم السفن بعظيم كما يتوهم البعض بل انما هو متوسط وسوف يأتي الكلام عن تركيب السفن الخ

وتقوم ارض الجسر من الواح من الخشب الاعتيادي تغطي وجه السفن كلهُ وعلى هذه الالواح تفرش الحصر المتخذة من القصب وتعرف عندهم بالبواري ثم يُفرش عليها طبقة من التراب يرشهُ اهل الضمان يوميًا في الصيف من ماء النهر . فاذا جاء الشتاء وطفح النهر طفحًا فاحشًا وفعوا الالواح وحلّوا السلاسل فانقسم الجسر الى نصفين يُربط الواحد منهما بالرصافة وهو الجانب الشرقي من المدينة ويُربط الآخر بالكرخ وهو الجانب الآخر . وذلك كيلا تفعل قوة جريان النهر في تركيبهِ شيئاً وكيلا تُلحق بهِ ضررًا

من مثل تفريق السفن وتقطيع السلاسل وتكسير الالواح الخ. فاذا تغافل اصحابهُ عن حلهِ ولم يتلافوا الخطر برّت المياه وراءها كل الجسر او نصفهُ الى مسافة ثلاثة ساعات او اكثر. فتقطع السلاسل ويحدث ما يحدث من الخسائر وحينئذٍ يضطر الاهالون الى طلبهِ لارجاعهِ الى مركزه على ضرب الطبل ولتشكيلهِ من جديد. ومما لا مراء فيهِ ان طريقة تركيب الجسر هذه ظلت كما هي عليهِ بدون ان يطرأ عليها ادنى تغيير البتة حتى استيلاء الخلفاء العباسيين على العراق. ولما بنيت بغداد كانت جسورها من هذا الصنف والظاهر ان الناس على عهدهم لم يكترثوا بفن البناء كما فعلوا بسائر العلوم اذ لم يخلّفوا لنا ما يشهد لهم بتضلعهم من ذلك الفن كما فعل سلفاؤهم

فانظر الى الاشوريين انهم قد ابقوا وراءهم آثاراً بديعة المنتسة وقيعة البناء مما يقطع الشك بمهارتهم العالية في ذلك الفن بذلك الجسر الموجودة بقاياه حتى اليوم والمدفونة في مياه دجلة قرب الموصل ففيهِ من دقيق الصناعة بقدر ما يعترف لهم من البراعة وهو الذي سرَّ ذكرهُ في الفصل الماضي. وللبابليين في التفنن في البناء السهم المعلى فانهم كانوا يقيمون منازلهم اربع طبقات او اكثر ويشهد لهم بذلك هيرودوتس اثناء زيارته بابل (Hérodote I livre 1) وربَّ قارئ يعترض علينا بقولهِ: لماذا إذن اقام البابليون مع تضلعهم من علم البناء جسراً دينياً دعائمهُ السفن الطوافة وارضهُ الواح الارز ولم يبنوه من الحجر الاصم. أجيب كأني بهم اذا اقاموه من الحجر تعذّر عليهم هدمه وقت الحروب وسهل على العدو اجتيازهُ ولهذا السبب عدلوا عنهُ. واليوم في ارض بابل علماء مستشرقون المانيون ينقّبون عن طبقاتها بأمر سامٍ من الباب العالي. وقد وقفوا على قصر الملك نبوخذ نصر والمكتبة العمومية وبعض المدارس وغيرها بحالتها الأولى سالمةً من عوامل الطبيعة كأنها الساعة خرجت من بين ايادي البنائين البابليين

اما في عهد مولانا السلطان فكأنَّ الامور أخذت جريًا جديدًا ألا تراهُ لم يترك زاويةً من واسع ملكهِ الّا وترك فيها علائم نشاطهِ وهمتهِ وولعهِ بالعلوم. فقبل ثلاث سنوات اقام بامرهِ العالي المهندس الفرنسي جاكريس جسراً حديديًا على نهر الخرّ (هو شعبة من دجلة) بديع الشكل بلغت مصاريفهُ نحواً من خمسة آلاف ليرة ولنا الأمل الوطيد بإقامة غيره على نهر بغداد (ستأتي البقيّة)

حبيس بحيرة قدس

للاب هنري لامنس اليسوعي

معربة بقلم المعلم رشيد الخوري الشرتوني (تابع لما سبق)

وكانت راحيل تسمع كلام الشيخ راقنةً و بصرها متّجه الى ما وراء مياه البحيرة من قمم جبال عكار التي خلفها كان القمر يطلع بطيئاً. وما كان غير قليل حتى افاض الكوكب الدري امواج انواره على الجزيرة والبحيرة معاً فما كان احسنها ليلة نقيّة الأديم تألقت نجومها وتقاربت كواكبها حتى كاد الناظر لا يبصر السماء من ورائها الّا كرُقعةٍ من السنجوني تخرقها قنّة من ذهب

وكانت محاسن الطبيعة المادية قد تصرفت بلبّ راحيل وفتنت عقلها فلبثت صامتةً واخذت هذه الساعة ولكن دون مقاومة تجيل في فكرها كلمات الاب يوحنا واحدةً بعد واحدةٍ ثم هتفت قائلةً « صلّي من اجلي يا ابي حتى يرزقني الله القوّة والايمان »

— نعم سأُصلي على هذه النيّة حتى تكوني سعيدة

— حتى اكون سعيدةً ! قالت هذا بصوت متألم حاسبةً ان الاب يوحنا يتهكم عليها

— نعم حتى تكوني سعيدةً في مصابك ودموعك

— كلّا يا ابي ما بقيت لي سعادة في هذه الدنيا فالسعادة لفظة يجب ان تُحذف من كتاب حياتي ثم تبسّمت تبسُّم مرارة وحرقةٍ وقالت: لا سبيل حتى اكون سعيدة. ألا تعلم انك تبغي المستحيل بطلبك مني ان اكون سعيدةً

— اعلمي يا راحيل اني استطيع بل يجب عليّ ان اطلب منكِ كل شيء. فاني لا اظنك امرأة اعتيادية بل اعتقد فيكِ مقدرةً على فهم لهجة الايمان بل على اتيان اسمى الاعمال وانبل الضحايا. ولكِ نفس مستقيمة نقيّة بالرغم عما فيكِ من عتوّ واصرار فاسلكي بجزمٍ في الطريق الضيقة التي تنفتح لكِ وبركة الحبيس وصلواته ترافقكِ

— ما احسنك يا ابي

– ان الله تعالى هو احسن بما لا نهاية له

ولما عادت الى البترون دخلت في حجرتهـا فتحت كتاب الاقتداء بالمسيح فوقع بصرها على فصل عنوانه « اربعة أمور تأتي بالطمأنينة التامة وهي اجتهد في ان تعمل مشيئة الآخرين لا مشيئتك. كُنْ دائماً الى احراز القليل اكثر من الحصول على الكثير اطلب دائماً المقام الاخير واخضع للكل. توسّل دائماً حتى تكمل مشيئة الله فيك. . . »

ولم تقرأ راحيل غير ما تقدم ايراده فخرّت جاثيةً وغطت رأسها بيديها وبكت طويلاً

١٢

وكانت دموع راحيل كإقرار بالضعف البشري تجاه سمو الكفر بالذات الذي وضح لها من خلال هذه السطور المرعبة بالرغم عن بساطتها. وكانت في الحقيقة تتوقع شيئاً آخر فقد حسبت انها تفوز برضاة قلبها في حب حلال وشرعي غير ان مطلبها بشري محض ومن ثم جاء ثقيلاً عليها ما كلفها به الحبيس من تضحية اعزّ امالها

ولا نعلم هل اقترح الاب يوحنا عليها ما اقترحهُ عن فرط يقين بشجاعتهـا وعزّة نفسها او عن قصد ارشادها الى ما يفوتها من الفضائل ؟ بل غاية ما يُعرف من خبرهـا انها استمرّت تتذمر من العناية الالهيَّة مع انهُ كان الواجب عليهـا في تلك الساعة نفسها ان تقدم أحرّ الشكر لله على نجاتها من اعظم الاخطار

علم القارئ مما سبق بيانهُ ان عبد المنعم مقدّم جبيل كان قد تواطأ مع بعض الخوّنة في قصر البترون على ان يبلّغوا اليهِ كل حادث يجري هناك فبواسطتهم اطلع على سرّ النفرة بين راحيل وزوجها وعرف باسفارها الى زيارة حبيس البحيرة فعقد النيَّة على ان ينتفع من هذه المعلومات و يرضي شهواته الدنيَّة باختطاف زوجة مقدم البترون

وبالنظر الى ما يترتب على مسألة كهذه من عظيم المسؤولية والتبعة لم يشأ ان يباشرها بنفسهِ مخافة ان تجرّ عليهِ خطراً كبيراً ولمّا كانت بينهُ وبين جوسلين مراسلة متتابعة منذ مدة من الزمان على يد رجل يهودي من طرابلس وهو الذي سبق الخبر عن قيامهِ في فناء قصر بشراي يوم حضور الاب يوحنا اليهِ انتهز المذكور هذه الفرصة

فاخذ يشجع جوسلين على معصية الامير رزق الله وشقّ عصا الطاعة لهُ. وعزم هذه المرّة ايضاً على ان يستخدمهُ لاتمام مقصده السيء.

وما كاد يفاتحهُ بالمسألة حتى لاقى منهُ اقبالاً وقبولاً دون ادنى تردُّد. وكان جوسلين يقصد ان يختطف راحيل لنفسهِ ويتظاهر لعبد المنعم انهُ يفعل كل شيء لمرضاتهِ. وكان يعلل نفسهُ انهُ متى وقعت راحيل في يدهِ تصير عنده بمثابة رهينة نفيسة يوم يأتي الامير رزق الله ويسألهُ حساباً عن مسلكهِ. على ان مقدم جبيل مع ما هو معروف بهِ من الخبث والدهاء قد لاقى شخصاً أدهى منهُ وأحيل ولسوف يتعلم ان المواطسات المبنيّة على الجريمة والاثم معرّضة للخدائع وأنواع المكر. ولو لم يجملا الغرض هدفاً لغرضهما السيء لسرّنا مشهد هذين الماكرين كيف ان كلاً منهما يسعى في خديعة الآخر

مرَّ الكلام على خبر مواجهة راحيل لحبيس البحيرة ونقول الآن ان عبد المنعم لمّا عرف بواسطة موقّتيهِ اليوم المعين للسفر بادر في الحال فانفذ رسولاً الى جوسلين الذي من فورهِ اخذ ما يلزم من التدابير واستدعى بعض الاشداء من رجالهِ ووكل اليهم اختطاف المسافرة النبيلة

فكان انهُ ليلة خرجت راحيل من البترون يصحبها خادمها موسى خرج ايضاً من القاعة خمسة من الخيّالة فساروا الى جهة حمص. وكانت الغيوم قد تلبّدت في الجوّ منذرةً بقرب عاصفة شديدة من العواصف التي يكثر ثورانها في أيام الخريف وكذلك كان هزيم الرعود يملأ الفضاء ولم يكن يظهر في الوقيع شيء من الكواكب والنجوم لترشد بانوارها خطى السارين

ومع ذلك فقد تيسّر السفر لهذه الشرذمة من الخيالة حتى قرية عين الشمس دون ان يحدث لها شيء مزعج غير انهم لمّا دخلوا الغاب الملتف لم يقدروا على المسير الّا بصعوبة وعناء لان خيلهم كثيراً ما كانت تكبو في الظلمة بسبب الحجارة المُلس التي رُصفت في تلك الطريق (١). وبعد ساعة من الزمان رأوا مع فرط الغم والدهشة انهم تاهوا عن السبيل

---

(١) مجلّة الشرق المسيحي ١٩٠٠

فعزموا في بادئ الامر على التربص مكانهم الى ان يُشرق الفجر ثم عدلوا عن هذا العزم خوفاً من وصولهم متأخرين الى ضفاف البحيرة بقرب السدّ الشمالي الذي منهُ تجتاز راحيل الى الجزيرة

اخيراً جزم زعيم تلك الشرذمة بان يرفع صوتهُ مستغيثاً لعلَّ احداً من الرعاة النصيريَّة الذين يبيتون مع مواشيهم في الغاب يسمعهُ فيأتي لنجدتهم. فظلَّ ينادي مدَّة طويلة ولم يسمع جواباً غير انهُ في الاخير حضر رجل ملتحف بفروة غليظة من جلود الغنم كما يفعل حتى الآن كثيرون من رعاة الماشية فاول ما شاهدهُ الزعيم قال لهُ بصوت جافٍ:

— انت ناظر حالتنا وقد ضللنا الطريق فعليك ان تخلصنا من الارتباك وتوصلنا حالاً الى طريق حمص دون تأخير

اما الرجل المجهول فلم يبادر الى الجواب وبعد ان تفرَّس في وجوه الخيَّالة قال:

— اي والله انكم مستعجلون كثيراً ولكن انبهكم قبل كل شيء. انكم تغلطون في استعمال الكلام الجافي مع رجل تطلبون منهُ النجدة والاسعاف. واني اودّ من صميم قلبي ان اقدم لكم خدمةً وقد برهنت على حسن استعدادي بان تركت قطيعي واتيت ملبياً نداءكم. ولكني أُحب قبل الشروع في شيء من ذلك ان اعرف من انتم. فوالله ان الزمان الذي نحن فيهِ قبيح وشنيع ينبغي فيهِ لمن كان مثلي ان يكون دائماً على حذر. ثم انكم خمسة رجال وكلكم مسلحون فاذا كنتم لا تخشون بأساً من راعٍ حقير مثلي فاوغب ان اعرف ايضاً هل استطيع ان اسلِّم نفسي بين ايديكم فقولوا لي اذاً ماذا تريدون ومن اين تأتون

— ماذا يهمُّك امرنا امامنا ولا تسأل عمَّا لا يعنيك

— اي والله من حيث الحال على هذا المنوال لم يبقَ لي الَّا ان اتمنى لكم سفراً سعيداً او ان تُرزقوا رجلاً آخر أبسط مني يدلكم على الطريق. والان اودعكم لان قطيعي يستدعيني

قال هذا وأدار ظهره وهمَّ ان ينساب في الغاب. فلمَّا شاهد الزعيم منهُ ذلك فطن ان الضرورة تستدعي منهُ ان يغيِّر لهجتهُ القاسية فقال:

— ارجع فأُخبرك بما تريد اعلم اننا آتون من القليعة

— هذا ما كنت اريد معرفتهُ وقد علمت الآن انكم في خدمة السيد جوسلين الذي انا من جملة رعاياه فالى اين تذهبون ؟

— الى حمص

— إلى المدينة نفسها ام الى ضواحيها ؟

— نريد ان نعرف اقرب طريق تؤدي الى بحيرة قدس

— فهمت مقصودكم فاتبعوني غير ان طريقكم ستكون صعبة وعرة وفي الوقت نفسهِ خطرة لانكم تبتعدون عن الطريق القويم من زمان

ثم ان الراعي اخذ يسير امامهم وهو ساكت لا ينطق بكلمة . غير انهُ كان مرةً بعد مرة يلتفت الى الخيَّالة ليرى هل يتبعونهُ فكان يشاهدهم متقدمين بعناء لاسيما وان سروج خيلهم وسيوفهم الطويلة كثيرًا ما كانت تشتبك باغصان الاشجار الشائكة القائمة كسياج عظيم على جانبي ذاك الشعب الضيق ولو أراد ان يُتعبهم ويُعنتهم لما امكنهُ ان يُنزل بهم اكثر مما اصابهم من المشقة

وبعد ان ذاقوا أشدَّ المرارة من مسيرهم في شعاب ضيقة وصلوا اخيرًا الى جرف وادٍ عميق فلمَّا همَّ الراعي بالنزول فيهِ صرخ بهِ زعيم الخيالة قائلًا :

— مكانك . لا نريد ان نمشي في هذه الطريق

— والله هذه هي أقرب الطرق المؤدية الى البحيرة

— دلَّنا على طريق غيرها

— والله لا أعرف طريقًا غيرها الَّا اذا ابتعدنا من هنا ثلاث ساعات

— لا بأس فان خيلنا طيبة وعليها نعتمد في ربح ما نخسره من الوقت

— الامر امرك . قال هذا ورجع على أعقابهِ فسار على حواشي الوادي ومشى الخيَّالة خلفهُ يتبعونهُ وكان زئير الرعود يقرب منهم وما طال الزمن حتى بدأت تقع قطرات ضخام من المطر وكان الدليل قد أسرع الخطى متنقلًا من صخر الى آخر كأن في رجليهِ اجنحةً للطيران . فتبعهُ زعيم الخيَّالة وهمَّ بندائهِ ولكنهُ كان قد اختفى في الغاب بخفة لا مزيد عليها وجاز ما بين الاشجار الملتفة دون ان يتحرك منها غصن

ثم سار الخيالة بعض خطوات فشاهدوا مشهدًا ارتعدت لهُ فرائصهم خوفًا لانهم وصلوا الى صف من الصخور تشرف على مهواة مرعبة يبلغ عمقها مئتين او ثلاثمائة متر

فانخلعت قلوبهم وتصوروا الهلاك محيطاً بهم لاسيما وانهم شاهدوا فوق هاماتهم صفاً آخر من الصخور فلم يجترئوا على تسلقها بخيولهم في ذلك الليل الدامس

ولا حاجة الى وصف ما احاق بهؤلاء الناس من الرعدة والحيرة لمَّا رأوا نفوسهم محبوسين بين صفين من الصخور لا يستطيعون تقدُّماً ولا تأخرًا ففهموا حينئذٍ ان الراعي قد أضاهم وكان طلوع الفجر قد قرب فاقاموا يتوقعون انبثاقه بفروغ صبر تحت الامطار والرياح. فلمَّا لاح الصباح وكانوا قد تبلَّلوا بالمطر وارتعدوا من البرد وخارت قواهم هم وخيلهم من فرط التعب والمشقة رأوا بخوف وهلع انهم في بلاد الاسماعيليَّة الشهورة سطوتهم ما بين الجبال الشاهقة المشرفة على قلعة مصياد وان المهمَّة التي كُلِّفوا بها قد فاتتهم فبدلاً من ان يختطفوا قرينة مقدم البندون أجأتهم الحال الى الاهتمام بوسيلة تكفل لهم النجاة وكتم وجودهم هناك عن أعين سكان الناحية

ومن يا ترى كان هذا الراعي المجهول الذي أضلَّهم الطريق واي شيء حملهُ على ذلك ؟ هل كان ذلك على سبيل الاتفاق ام ان العناية الالهيَّة الساهرة على البرارة واهلها هي التي ارسلت في تلك الليلة نفسها الراعي عبد الله صنيعة الاب يوحنا ؟ كان الراعي المذكور متمدداً على الحضيض وهو ملتحف بفروة ضخمة من جلود الغنم كما تقدم الكلام ومعهُ كلبان كبيران اتخذهما رفيقين امينين في ذلك الغاب وفيما هو نائم سمع صريخ الاستغاثة فما بالى لهُ في بادئ الامر غير انهُ لمَّا اشتدَّ الصوت هبَّ من نومهِ فسار الى الحيَّالة السابق خبرهم فلمَّا علم انهم آتون من القلعة وقاصدون بحيرة قدس ظنَّ انَّ جوسلين أرسلهم لاتيان جريمة جديدة ضد الاب يوحنا المحسن اليهِ وحينئذٍ اضمر لهم الشرَّ

وكان عارفاً بمحبَّة امير مصياد لحبس البحيرة فعمد الى تضليل رجال جوسلين واغتنام الوقت الكافي لتنبيه الامير الاسماعيلي الى المكيدة التي ينسجونها للاب يوحنا

وبناء على ذلك قادهم في طرق وشعاب وعرة حتى انهك قواهم وتركهم اخيرًا في مشارف قلعة الاسماعيليين المشهورة. ثم اخذ طريقًا منحرفة فسار فيها مسرعاً حتى وصل الى القلعة قبل انقضاء الليل

غير ان تدخل الامير الاسماعيلي لم يعد وقتئذٍ ضروريًا لانَّ الحيَّالة المذكورين اصابهم من الخجل والفشل وقلق الفكر ما جعلهم يغبطون نفوسهم على تمكنهم اخيرًا من الاهتداء الى طريق القلعة التي انتهوا اليها في اليوم الثالث لخروجهم

اما الراعي عبد الله فسوف نراه في سجون القليعة حيث يزجّهُ جوسلين انتقاماً من اخلاصهِ الصحيح لحبيس البحيرة. والاخلاص صفة جميلة في الناس لكنها نادرة عزيزة وأفضل أنواعها ما قام بهِ رجل حقير تستدعي منهُ حالتهُ ان لا يهتمّ الّا بنفسهِ

١٣

وبينما هذه الحوادث تجري في جهات حمص كان مالك عملاً باوامر سيدهِ قد زايل بشراي ذاهباً في طريق طرابلس وهو ممتطٍ حصاناً ادهم قصير القامة ضئيل الجسم يدعى « الريح » لم يكن احد يعرف شيئاً عن اصلهِ لا مالك ولا غيره بل كل ما يُعلم من امرهِ هو ان زمرةً من التوَر تزلت ذات يوم بالقرب من بشراي فلمّا ارتحلت تركتهُ هناك فشاهده اهالي المدينة ولم يرضَ احد منهم ان يُطعمهُ لكثرة ما رأوا في بدنهِ من الجراح غير ان مالكاً حاجب الامير رزق الله اخذتهُ الشفقة على الحيوان المسكين واتى بهِ الى منزلهِ واعتنى بهِ واخذ يركبهُ في جميع سفراتهِ وجولاتهِ في الجبل

وتعلق « الريح » بمولاهُ الجديد كل التعلّق فلم يكن يطيق اصلاً ان يركبهُ رجل آخر غيرهُ وكم من مرة خلّصهُ بسرعة إحضارهِ من مطاودة الاعداء. وكان مالك اذا اخذهُ التعب في اسفارهِ الطويلة يرخي اللجام على عنق « الريح » مستسلماً الى غريزتهِ فكان اكثر من مرة يتحاشى السير على الطريق العمومية ذاهباً بهِ في الشعاب والمسالك غير المطروقة ولا يلبث مالك ان يتأكّد بعد ذلك انهُ قد جنّبهُ كميناً او خطراً آخر وحاصل الكلام انّ حبّاً صبياً تمكّن بين الفارس وفرسهِ وقد ادّى مالكاً الى عدم الارتياب في ان وجودهُ مرتبط بوجود « الريح » (الباقي للآتي)

مطبوعات شرقية جديدة

غادة كربلاء

من بضع سنوات عُني حضرة الاديب المجتهد جرجي افندي زيدان منشئ مجلة الهلال بتأليف الروايات التاريخيّة. ولهذا النوع من التأليف أخصام وأشياع فاكثر الاولون

في ذمّه وبالغ الآخرون في مدحه والحقيقة هي بين ما قالوه فلا المغالاة في الطعن تصدق عليه ولا الاغراق في الاطراء يلائم الواقع. ولا مراء ان الروايات التاريخيّة لا تعلّم التاريخ لمن يجهله فمن اراد أن ينتفع منها لا يكفيه من التاريخ ظلّ المعرفة والالمام القليل لانهُ يتعذّر عليه والحالة هذه ان يميّز بين الامور التاريخيّة في الحقيقة وبين ما تخترعهُ مخيلة المؤلف تحسيناً لتنسيق الكتابة ومبالغةً في ربط اجزائها ومن هذا تعلم الدرجة التي يتحتم على المؤلف ان يدركها من تاريخ الزمان الذي تجري فيه حوادث روايته

ولا ريب عندنا ان حضرة منشئ الهلال عارف حقّ معرفة بتاريخ الصدر الاول الاسلام كما قد تحققنا ذلك من هذه الرواية التي أهديت الى ادارة المشرق وهي الحلقة الخامسة من سلسلة رواياته عن التاريخ الاسلامي غير اننا في اثناء المطالعة عثرنا على بعض أمور اورثتنا دهشة من ذلك ما جاء في الصفحة ١١٠ وهو يوهم ان رواة الشعراء كانوا يتخذون لباساً مخصوصاً ولا نعلم انَّ احداً من اهل التاريخ ذكر شيئاً من هذا فاذا تكرّم صاحب الهلال ببيان مستنده في هذا الشأن المذكور كنّا لهُ من الشاكرين. ثمَّ ان سياق الرواية يدلّ على ان حضرة المؤلف يجهل ان بني غسّان كانوا من اليعاقبة وان تدمر كانت آهلةً بالناس في أواخر القرن الثامن مع انَّ مجلة المشرق قد اثبتت ذلك بنوع لا يقبل الردّ في ما أدرجتهُ من المقالات. وفي الصفحة ٢٢٢ من الرواية يقول بوفاة الخليفة يزيد في حوران وهو وهمٌ والصواب حُوّارين وهي بلدة في نواحي حمص كما اثبت ذلك المسعودي في الكتاب الخامس في الصفحة ١٢٧ ثم ديوان الاخطل في الصفحة ٢٨٩ حيث تجد مرثية من افخم الشعر قالها الشاعر المشار اليه بهذه المناسبة. ومن القصيدة هذا البيت :

مُقيمٌ بحُوّارين ليس يريمها سقتهُ الغوادي من ثويرٍ ومن قبرِ

وقال ياقوت (٢ : ٣٥٥) : « وهي (اي حوارين) من تدمر على مرحلتين وبها مات يزيد بن معاوية »

ولعل جناب جرجي افندي زيدان قد استُدرج الى هذا الغلط برواية ابن الاثير في الجزء الرابع والصفحة ٥٣ وتاريخ الخميس في الجزء الثاني والصفحة ٣٠٠ ورواية الاثنين كما لا يخفى غلط. وقد تقدّم لنا تأييد هذا القول في الصفحة ٤٦ من كتاب لنا ماضٍ نشرناهُ بالفرنسية عن ترجمة الاخطل شاعر الامويين لا بل سبقنا الى اثباته حضرة الاب

انطون صالحاني اليسوعي في تعاليقهِ على ديوان الشاعر المذكور

على ان أخص ما قضينا منهُ العجب في الرواية التي نحن بصددها هو قولهُ بان الرهبان في أديار الروم كانوا يتخذون لهم خوادم من النساء ولا نرتاب انهُ أتى بهذا الافتراض لحسن التحام القصة وتقوية سياقها ولكننا نودُّ أن نعرف مستندهُ في الافتراض المذكور

بقي ان نختم الكلام بهذه الملاحظة الاخيرة فقد قال في الصفحة ٢٠٧ « ان الرهبان والقسوس وكلهم من الروم يتكلمون اللاتينيَّة وبعضهم اليونانيَّة والسريانيَّة الممزوجة بشيء من العبرانيَّة » وكل كلمة من عبارتهِ هذه تستوجب نقدًا خاصًّا لانها توضح ان المؤلف ليس لهُ اطلاع وافٍ على أحوال اللغات في سوريَّة باواخر القرن الثامن اذ ان السوريين في ذلك العهد لم يكونوا يتكلمون اللاتينيَّة اكثر مما يتكلمونها الآن ولاسيما في بصرى (حوران) التي ورد ذكرها في هذا الموضع. واما السريانيَّة فمع تصريحنا باشكال عبارتهِ عنها اي « الممزوجة بالعبرانيَّة » نوافقهُ على ما قال فيها ونهنئهُ لكونهِ لم يمحُ فيما يتعلق بها منحى بعض القوم المتأخرة افكارهم

وليس من شأننا ان نتكلم على حسن لحمة الرواية تفصيلًا فنقول بالاجمال انها حسنة الانتساق ولو تخلَّلتها المرة بعد المرة عدَّة امور يبعد انطباقها على الحقيقة لانها قلما تهم المولعين بقراءة مثل هذه الكتب اذ انهُ من بعد الف ليلة وليلة صار الشرقيون من اصحاب الروايات يستجيزون كل تقدير يعنّ لهم ولو كان غير ممكن الوقوع لا عادةً ولا عقلًا

ه. ل

الطريقة الموسيقيَّة

في الكنيسة اليونانيَّة بمقتضى التقليد

تأليف الاب هوغ كابس احد الرهبان البندكتيين من جمعيَّة بيرون

ومن اساتذة المدرسة اليونانية في رومة

LE SYSTEME MUSICAL

DE L'EGLISE GREQUE D'APRES LA TRADITION

par dom Hugues Gaïsser, *Rome* 1901 p. 170

يؤخذ من أقوال المؤلف الذي يدل كلامهُ على وفرة اضطلاع في الموضوع الذي

تصدّى لبيانهِ انَّ الموسيقى الكنسيَّة اليونانيَّة في الحال مشتقَّة من الموسيقى القديمة عند اليونان الوثنيين. ومدار الكتاب كله على اثبات هذه القضيَّة التي خالفها علماء الموسيقى في اوربَّة ودأوم اليونان في كل الاحوال على تأييدهـا فاليونان على حسب رأيهم المصيبون غير انهم استُدرجوا في الازمنة الحديثة الى اغلاط في التفسير واعطوا موسيقاهم اتجاهاً كان سبباً لتقرطها وانحطاطها

ويتعذَّر في هذه السطور القليلة ان نطلع القرَّاء على كل فحوى الكتاب فنكتفي من ثم ببيان اهم ما فيهِ وهو انَّ المؤلف قـد افرغ الوسع في اظهار ما بين الموسيقى اليونانية الحالية بالرغم عن التشويه الذي طرأ عليها من المشابهات المؤكدة بحسب زعمهِ مع الموسيقى البيزنطيَّة وما لهذه الاخيرة من الوجوه التي تربطها بالموسيقى القديمة الوثنيَّة في اغريقية غير ان اهل الاختصاص بالفن أولى منَّا بالحكم أقدرَ على إصابة الغرض ام لا. ولكن الكل وخصوصاً اليونان يجب ان يكونوا لهُ من الشاكرين لاجتهادهِ في تأييد قضيَّة تظهر بادئَ بدء انها طبيعيَّة لا تحتمل الجدال وهي اشبه بما لو قدَّرنا ان الموسيقى العربيَّة الحديثة (قلما يكون في ـورتَّة) ترتقي الى الموسيقى التي وضع الفارابي قواعدها حسبما تثبتهُ مباحث حضرة الاب كولنجت اليسوعي الذي يشتغل اليوم بهذه المسألة س. ر

شذرات

المقتطف ووزن الفكر — الى المقتطف بامور غريبـة في الفرينولوجية اي قياس عقول البشر بحجم دماغهم والاستدلال على مواضع الافكار من الحُقّ الدماغي. ولكنهُ لم يقف عند هذا الحدّ بل اتحف القراء في هذه الاثناء بما هو اعجب وأغرب اي طريقة « وزن الفكر » (كذا) (راجع مقتطف اغسطس سنة ١٩٠١). غير ان وصيفنا خشي هذه المرة انكار المطالعين صحَّة ما يرويهِ فاستدرك كل مؤاخذة باعلانهِ بادئَ بدء ان ما يقدّمهُ الى المشتركين من ثمار جنة العلوم هو وارد من اميركة بلاد الغرائب. ولكن نرى ان أعظم الغرائب هو إقدام دكتورين بارعـين في الفلسفة على تدوين ما يكون في غالب الاحيان محشوًّا بالكفر دون ان يلحقاهُ بكلمة انتقاد او تنبيه الى ما فيهِ من فساد التعليم وشناعة المدَّعى. أهذا شأن من تصدَّى لاعلاء

منزلة العلوم وتقلد وظيفة إثارة العقول ؟ فان سلوكاً مثل هذا يسوق النـاس الى مهواة الضلال بدلاً من ان يبث أنوار المبادئ الراهنة . وهب ان كل ما لخّصهُ المقتطف من الصحائف الاميركيّة عن وزن الدم الوارد الى الدماغ حين التفكر هو عين الواقع (ونحن لا نستصعب التسليم بهِ ما خلا استنتاجات المقتطف) فهـل يجوز لاصحابهِ ان يعنونوا مقالتهم بوزن الفكر . ألم يغطوا ما وراء هذا العنوان من رائحة مشرب الماديين والرافضين (پوزيتيفيست) الخ القائلين بهيولى العقل البشري ؟ ألم تبيّن الفلسفة الصحيحة (ولا ندري غير هذه) ان العقل جوهر بسيط منزّه عن الجسمانيّة تنزيهاً كليًا الّا انهُ لتقيّده بجسم هيولي تستشفّ افعالهُ من وراء التغييرات الطارئة على قسيمه في الحياة . لكن اين هذا الاستدلال الكثير المشاكل من إلقاء الذهن الانساني على كفّة ميزان ورَوز جرمهِ وجرم الفكر ؟ ثمّ لا بدّ لكل موزون من حجم معيّن ولو كان غازيًا وعديم اللون كالهواء . فبناء عليهِ نسأل محرري المقتطف ان يهدوا الينـا عمّا قريب نبذةً أغرب من هذه الاخيرة عن طول الفكر وعرضهِ ثم عن لونهِ وطعمهِ اذا كان من جنس المنظورات او المأكولات

وكنّا نتمنى لو اتاح لنا المقام الخروج الى كافّة المناقضات والاستحالات المزيّن بها وهم الفريتولوجية المادّية لكن دعنا نتـاهل مع الخصم مؤوّلين قولهُ بما امكن من اللطف منزّلين كلامهُ منزلة المجاز بنوع ان هاتين اللفظتين « وزن الفكر » يكون مؤداهما « قياس ما يقتضيهِ التفكر من زيادة جريان الدم في الدماغ » او بعبارة اقصر « قياس الحركة الدماغية وقت التفكير » فلم لم يصرّح بهِ اصحاب المجلة ولا مرة واحدة بل داوموا من صدر النبذة الى منتهـاها على تعريفهم الملتبس ناقشين في قلوب كثير من القراء شارّوا او أبوا سمّ الحيرة المزعجـة . ولربّما قصدوا تفكيه خواطر المطالعين وترويح البابهم هنيهة بذاك العنوان الفريد موقنين منهم بافراز رزين الكلام من هزليّهِ على انهم لم يذكروا مع سعة علمهم ان ليس كل مشترك في المقتطف بجائز شهادة الدكتوريّة في الفلسفة وان مثـل هذه الطرائف اللغويّة غير مفهومة عند السواد الاعظم منهم

ل . و

منطاد صعد ١٠,٣٠٠ متر في الحادي والثلاثين من شهر تموز وكب المنطاد كلّ من المسيو برسون والمسيو سورينغ من علماء الطبيعيّات في الدائرة

المركزيَّة بمدينة برلين فارتفعا به الى علو عشرة آلاف وثلاثمائة متر وقد اتيا بجرأتهما هذه عملاً عظيماً يعد في الطبقة الاولى من الحوادث العلميَّة

امَّا المنطاد الذي ركباه فيبلغ حجمهُ ثمانية آلاف متر مكعب وقد ادخلا فيهِ ستة الاف متر مكعب من غاز الهيدروجين النقي . ولاجل الوقاية من البرد اتخذا آلة خصوصيَّة تدعى ترموفور

ثم انهما استعملا استنشاق الاوكسيجين النقي الذي وقاهما الى حد محدود من تأثير تمدد الهواء

وقد بدأا يشعران بالانزعاج على علو ٩ آلاف متر فلمَّا وصلا الى علو عشرة آلاف متر غاب كلاهما عن الحسِّ في وقت واحد . وكان المسيو برسون قد سبق ففتح اللولب احتياطاً بحيث انهُ لمَّا وصل بهما المنطاد الى ارتفاع عشرة آلاف وثلاثمائة متر اخذ في الهبوط وكان نزولهُ في جوار كوتبوس ودام غياب راكبيهِ عن الحس من ٣٠ الى ٤٥ دقيقة غير انهُ لم تتولد عنهُ عواقب وخيمة وقد عاد المذكوران الى رشدهما حالما انتهيا الى علو موافق والمرجَّح ان اغماءهما قد كان معظمهُ متسبباً عن انخفاض الهواء

امَّا البرودة فبلغت اقصى درجاتها الاربعين تحت الصفر وهي اقل بكثير ممَّا كان منتظراً لانهم كانوا يقدرون انها ستبلغ الدرجة ٦٣ (البشير)

اكتشافات جديدة بينما كان جماعة من الفلاحين يحفرون ارضاً في اشمونين سباخ بالقطر المصري عثروا على هيكل خطير محفوظ احسن حفظ ممكن وهو يتضمن كتابة لميرنفتاح ولسيتي الثاني مع كتابة اخرى طويلة عن بناء الهيكل المذكور

يظهر ان اشغال العلَّامة فلينت باتري في ابيدوس قد تجاوزت بنجاحها في الكمّ والكيف اشغال السنة الماضية وقد عثر على اسم ملك جديد

وتمكَّن العلماء في لندن من قراءة بعض اوراق بردي تستدعي الالتفات وهي تتكلم عن الطب والديانة وبعضها يتضمَّن قصصاً وحكايات

متحف الجيزة تهتمّ ادارة المتاحف المصريَّة اليوم بنقل متحف الجيزة الى الدار الجديدة التي بُنيت لهذه الغاية . غير ان النقل يجري ببطء وتماهل

أسئلة وأجوبة

س سأل من حلب حضرة القس ميخائيل اخرس : يقول اهل العلم في زماننا انَّ الارض تكوَّنت من الشمس والحال ان الشمس خُلقت في اليوم الرابع والكتاب يقول « في البدء خلق الله السماوات والارض » فينتج منهُ ان الارض خلقت في اليوم الاول فهل كانت هذه الارض التي خلقها الله في البدء ارضنا هذه ؟ لكن بما اننا كوكب كسائر الكواكب مثل الزهرة والمشتري والمريخ وبما ان الكواكب خلقت في اليوم الرابع فكيف تكون ارضنا التي هي اشبه بباقي الكواكب قد خلقت في اليوم الاول ؟

ج اولًا انَّ قولكم بان اهل العلم في زماننا يقولون بانَّ الارض تكوَّنت من الشمس ولو لم يكن حقيقةً ثابتة هو المذهب الراجح اليوم عند العلماء فهم يذهبون الى انَّ الله خلق اولًا مادَّة العالم فتكوَّنت منها الكواكب ومن الكواكب سيَّاراتها ومن السيَّارات اقمارها . فعن الشمس التي هي حتى الآن بهيئةٍ غازيَّة ومتأججة انفصلت الارض وباقي السيَّارات التابعة لشمسنا . وعن الارض لمَّا كانت في حالة غازية انفصل القمر . كما انفصلت اقمار عن اكثر السيَّارات

ثانيًا لمَّا قال الكتاب انَّ الله في البدء خلق السموات والارض عنى بذلك خَلق الكائنات كلها بنوع اجمالي ثم اخذ في الكلام بالتخصيص على كلّ نوع من المخلوقات من نور وسماء وارض ونيرات ونبات وحيوان الخ . ودليل ذلك ان الكتاب بعد ما اجمل في الآية « خلق السماوات والارض » عاد فذكر خَلق السماوات في اليوم الثاني « فصنع الله الجلد . . . وسمى الله الجلد سماء . وكان مساء وكان صباح يوم ثانٍ » وعليهِ فيكون المراد بكلمتي السموات والارض مجموع كل الكائنات

وفي ما تقدَّم كفاية عن السؤال السابق . غير انهُ اذا لاحظنا انَّ الكتاب يذكر خَلق الارض في اليوم الثالث وخلق الشمس في اليوم الرابع ظهر انَّ المشكل لم يحلّ بل يزيد ارتباكًا . والجواب عليهِ انهُ ذكر الشمس في اليوم الرابع بصفة جرم نيّر للارض لا بصفة جرم بسيط ومن ثمَّ فلا يمتنع ان تكون الشمس قد وجدت قبل الارض كجرم انفصلت عنهُ الارض وأن تكون الشمس بعد الارض بصفة نيّر ينيرها لانَّ الشمس لم تكن دائمًا منيرة كما انَّ الارض كانت متأججة ثم بردت اقلَّهُ على سطحها ا . ص

قائمة للآثار الجوّية من ٢٣ ايلول الى ٦ تشرين الاول ١٩٠١

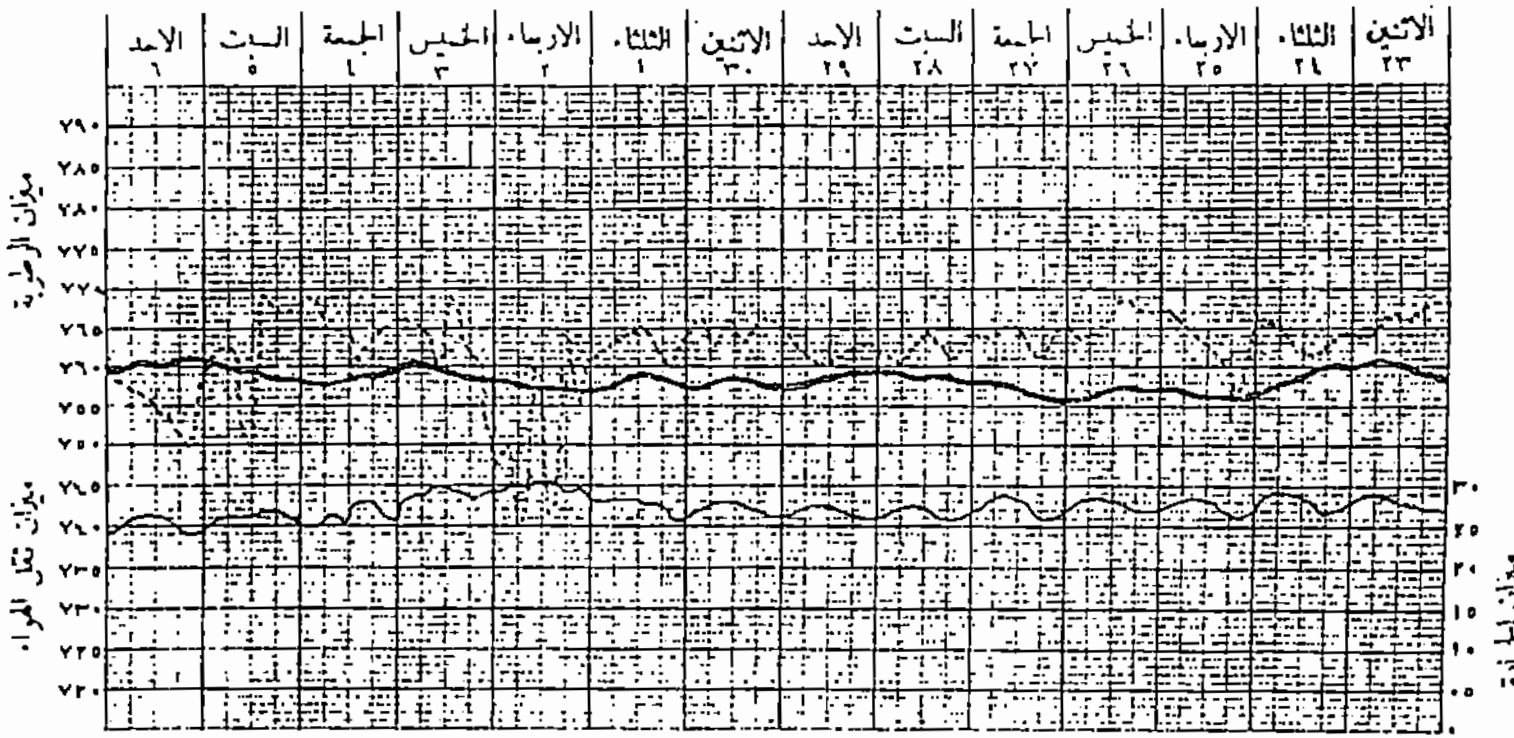

انّ الخطّ الضخم (——) يدلّ على ميزان ثقل الهواء المعروف بالبارومتر — والخطّ الرفيع التابع (— —) على ميزان الحرارة (ترمومتر) امّا الخطّ المنقّط (٠٠٠٠٠٠) فهو دليل على ميزان الرطوبة (هغرومتر) — والاعداد الدالّة على درجات ثقل الهواء تدلّ ايضاً اذا حذف منها عدد المئات على درجات الرطوبة وقد عُيّن التبخير وميزان المطر في ٢٤ ساعة بالملمترات وعُشر الملمترات